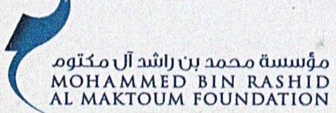
كـــاريـــن أرمســـترونـــغ

تاريخ الأسطورة

«مرجع غني ومكثّف حول العلاقة المتغيرة دائماً بين الإنسان والأسطورة عبر رحلة تستعرض قروناً من التجربة الإنسانية في هذا المجال».

- قسم مراجعة الكتب في «نيويورك تايمز»

ترجمة: وجيه قانصو







تاريخ
الأسطورة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

A Short History of Myth

تاريخ الأسطورة

تأليف

كارين أرمسترونغ

ترجمة

د. وجيه قانصو





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-389-3

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات



الفصل الأول

ما هي الأسطورة؟

كان البشر دائماً صُنَّاعَ أسطورة. وقد اكتشف علماء الآثار، بعد التنقيب عن قبور جماعة النيندرثال (Neanderthal)، إحتواءها على أسلحة وأدوات وعظام لحيوانات مُضحَّى بها، تدل جميعها على وجود معتقد عندهم بعالم أُخروي يشبه عالمهم. ربما كان النيندرثاليون(*) يروون لبعضهم البعض قصصا عن الحياة التي يتمتع بها رفاقهم بعد موتهم. كانوا بذلك يتمثلون روئ حول الموت لا تحملها المخلوقات الأخرى. فالحيوانات تشاهد بعضها البعض تموت، ولكن وبحسب ما نعلم، لا تعطي للمسألة أي اهتمام زائد. في حين، وبحسب ما بينته قبور النندرثاليين، أنهم ابتكروا، مع تبلور وعي لديهم بحقيقة فنائهم، حكاية مضادة تمكنهم من التكيف مع هذا الوعي الجديد. لذلك، وحين يدفن النندرثاليون رفاقهم الموتى باهتمام وعناية ملحوظتين، يعني أنهم قد أصبحوا يعتقدون بأن العالم المادي والمرئي ليس الحقيقة الوحيدة. يبدو من هذا، أن البشر تميزوا منذ زمن مبكر جدا،

(*) فصيلة بشرية انتشرت في أوروبا ووسط آسيا وغربها. ظهرت في أوروبا حوالي 350000 قبل الميلاد وانقرضت حوالي 30000 ق.م. ويتسم أفرادها بجبهة رأس متراجعة إلى الخلف وجبين ناتئ. ويعود إسم نيندرثال إلى إسم إقليم في ألمانيا، وهو المكان الذي وجدت فيه بقايا من هذه الفصيلة (المترجم).

بقدرتهم على حيازة أفكار تتجاوز تجاربهم اليومية.

نحن كائنات تبحث عن المعنى. فالكلاب مثلا، بحسب ما نعلم، لا تتألم لحال أفراد فصيلتها، ولا تقلق من مصير الكلاب في الجزء الآخر من العالم، ولا تحاول أن ترى حياتها بمنظور مختلف. في حين أن البشر يقعون في اليأس بسهولة، الأمر الذي دفعهم، منذ بدايات وجودهم الأولى، إلى اختراع قصص تعينهم على موضعة حياته داخل محيطٍ كوني أوسع، وتكشف لهم انتظاماً كامناً فيه، وتعطيهم شعوراً مضادا ومعاكسا للشواهد الباعثة على الإكتئاب والعبث، وبأن الحياة لها قيمة ومعنى.

ميزة أخرى من خصائص الذهن البشري، هي قدرتنا على توليد أفكار وتجارب لا يمكن تفسيرها تفسيراً منطقياً، وأن لدينا خيال وقدرات ذهنية تمكننا من التفكير بشيء غير شاخص أمامنا، وعندما نتصوره لأول مرة لا يكون له وجود موضوعي. فالخيال هو الملكة التي تنتج الدين والميثولوجيا. وعلى الرغم من سوء سمعة التفكير الميثولوجي(*) في زماننا، حيث أصبحنا نعلل

(*) يحيل مصطلح Mythology إلى ذلك الفراغ من المعرفة الذي يتعامل مع نظام الأساطير على العموم. وكلمة ميثولوجيا تحيل إلى مجموعة أساطير تؤلف بمجموعتها نظاماً أو جهازاً أسطورياً، كان مجتمع معين يستعمله من قبل فترة معينة من التاريخ، وكان أفراده يعتقدون بصحة تلك الأساطير في تفسير الطبيعة والكون والإنسان.

وقد آثرت أن أنقل كلمة Mythology بلفظها إلى العربية، لسهولة تداولها في العربية، وإمكان تبيئتها داخل المجال الثقافي العربي، ولاختزانها معاني مركبة يصعب التعبير عنها بكلمة عربية واحدة مرادفة لها.

استبعادنا له بأنه لا-عقلي وغير دقيق، فإن الخيال ما يزال تلك الملكة التي تمكن العلماء من إخراج معارف جديدة إلى الضوء، وإلى اختراع التكنولوجيا التي جعلتنا أكثر فعالية بكثير. بل إن خيال العلماء، هو الذي مكَّننا من السفر إلى الفضاء الخارجي ومن المشي على القمر. وهي إنجازات لم تكن ممكنة في السابق إلا في عالم الأسطورة. فالأسطورة والعلم (science) يوسعان معاً مدى الوجود البشري، وكما هما العلم والتقنية، فإن الميثولوجيا ليست خروجا من هذا العالم، بل تتعلق بقدرتنا على العيش فيه بكثافة.

تخبرنا قبور النندرثاليين خمسة أمور مهمة حول الأسطورة. **أولها**: أن أصولها مستندة إلى تجربة الموت والخوف من الفناء. **ثانيها**: ما تشير إليه عظام الحيوانات من أن الدفن قد تم مع تقديم أُضحية. مما يعني أن الميثولوجيا لا تنفك عادة عن ممارسة الطقوس، فالعديد من الأساطير لا معنى لها خارج المشهد الطقسي الذي يبث فيها الحياة، ولا يمكن فهم مغزاها في أجواء وترتيبات اعتيادية .**ثالثها**: أن استحضار اسطورة النيندرثاليين عند القبر، يعني استحضارها عند الحدود النهائية للحياة البشرية. فالأساطير الأكثر فعالية، هي التي تثير فينا الحدود القصوى، لترغمنا على تجاوز تجاربنا الشخصية. هنالك لحظات يكون علينا فيها، بطريقة أو بأخرى، الذهاب إلى مكان لم نره من قبل، وفعل أمور لم نفعلها من قبل. الأسطورة تدور حول المجهول، حول أشياء لا نملك منذ البداية كلمات للتعبير عنها. تنظر الأسطورة إذاً في قلب الصمت الكبير .**رابعها**: أن قصة الأسطورة

لا تروى لغرض الرواية فقط، بل هدفها أن تدلنا على ما يجب علينا فعله. فنجد مثلاً، أن جثة الميت يتم تمديدها، في قبور النيندرثال، على هيئة الجنين، كما لو أنه في وضعية ولادة جديدة، وأن على الميت أن يأخذ خطوة الولادة التالية بنفسه. إذا فهمت الميثولوجيا بشكل صحيح، فإنها تعدنا للحالة الروحية والنفسية الصحيحة لاتخاذ الموقف المناسب في هذا العالم، أو في العالم الآخر.

أخيرا: تتكلم الميثولوجيا عن عالم مواز لعالمنا وبطريقة ما داعم لوجودنا. والإيمان بهذه الحقيقة اللامرئية والأكثر قوة، التي تسمى أحيانا بعالم الآلهة، هو فكرة الميثولوجيا الأساسية. كانت الميثولوجيا تسمى "الفلسفة المُعمِّرة" لأنها أرشدت المجتمعات إلى الأساطير والطقوس والتنظيم الإجتماعي قبل مجيئ حداثتنا العلمية، وما تزال تأثيراتها مستمرة في العديد من المجتمعات التقليدية المعاصرة. بحسب الفلسفة المُعمِّرة، فإن هناك عالم ألوهة مواز ومماثل لكل ما يحصل في عالمنا وما نسمعه ونراه فيه، لكنه أكثر غنى وقوة وديمومة من عالمنا.[1] وأن كل حقيقة أرضية هي عبارة عن ظل باهت لنموذجها الأصلي، وطرازها الأولي، إنها ببساطة نسخة غير مكتملة. فالكائنات البشرية الفانية والهشة، لا يمكنها تحقيق إمكاناتها إلا بالمشاركة في تلك الحياة الإلهية. لقد قدمت الأساطير تفاصيل، من حيث الشكل والصياغة، عن الحقيقة التي يتحسسها الناس بحدسهم وغريزتهم،

ولم يكن إخبارها عن سلوك الآلهة، لغرض التسلية أو إثارة الفضول، بل لتمكين الرجال والنساء من محاكاة تلك الكائنات الفائقة واختبار تجربة الآلوهة بأنفسهم.

نحمل في بيئتنا الثقافية المعاصرة أفكاراً تبسيطية عن الكائنات الإلهية، أما في العالم القديم، فقد كان من النادر النظر إلى "الآلهة" ككائنات متعالية على الطبيعة، أو شخصيات حكيمة وناضجة، أو تعيش وجودا مفارقا للطبيعة ومنفصلا عنها. فالميثولوجيا لم تكن حول اللاهوت(*)، بمعناه الحديث، بل حول التجربة الإنسانية. حيث اعتقد الناس بوجود ترابط لا فصام فيه بين الآلهة والبشر والحيوانات والطبيعة، وانها جميعا خاضعة لنفس القوانين، ومكونة من مادة إلهية واحدة. في البداية، لم يكن هنالك فجوة وجودية بين عالم الآلهة وعالم البشر، وعندما يتكلم الناس عن شيء إلهي، فهم يتكلمون عن جانب من جوانب العالم الأرضي، كذلك لم يكن وجود الآلهة الأساسي منفصلا عن وجود العاصفة والبحر والنهر، ولا منفصلاً عن العواطف الإنسانية الجامحة، مثل الحب والغضب والشغف الجنسي، التي يظهر أنها ترفع الرجال والنساء مؤقتا إلى نمط وجود مختلف، فيرون العالم معها بعيون جديدة.

صُمِّمت الأسطورة إذاً لمساعدتنا على التعامل مع المآزق البشرية المستعصية، وإعانة الناس على تحديد موقعهم في العالم

(*) اللاهوت علم يبحث في صفات الله الذاتية ووحيه وعلاقته بالكون.

وتحديد وُجهتهم فيه. كلنا يريد أن يعرف من أين أتينا؟ ومع فقدان بداياتنا الأولى في ضباب ما قبل التاريخ، ابتكرنا لأنفسنا أساطير عن آبائنا الأولين، تساعدنا، على الرغم من لا تاريخيتها، على تفسير موقفنا تجاه بيئتنا وجيراننا وعاداتنا. ونريد أن نعرف أيضاً إلى أين نحن ذاهبون؟ فابتكرنا لذلك قصصاً تتحدث عن وجودٍ ما بعد الموت، مع أن العديد من الاساطير، كما سنرى لاحقاً، لا تتضمن صوراً عن خلود الكائنات البشرية. وعندما نريد تفسير لحظات التسامي التي تحصل عند تعالينا على إهتماماتنا اليومية، فإن فكرة الآلهة تساعدنا على تفسير تجربة التعالي والتسامي. لقد كانت الفلسفة المُعمِّرة (الميثولوجيا) تعبيراً عن حسنا الفطري بأن في البشر والعالم المادي حقائق ووقائع، أكثر بكثير مما يظهر للعين.

تستعمل كلمة الأسطورة اليوم غالباً، لوصف شيء غير صحيح وغير واقعي. فالسياسي حين يتهم بوقوع زلات وعثرات منه، يقول عنها بأنها أسطورة لم تحدث أبداً. وعندما نسمع عن آلهة تمشي على الأرض، وعن أموات يخرجون من قبورهم، أو عن انشقاق البحر ليدع شعبا مُختاراً يهرب من عدوه، ترانا ننبذ هذه القصص، معللين فعلنا بأنها أمور لا تصدق ولا يمكن البرهان على صحتها. لقد بلورنا، مع بداية القرن الثامن عشر، رؤية علمية في فهم التاريخ، أصبحنا معها مهتمين فقط بما حصل بالفعل. وهذا على خلاف العالم ما قبل الحديث، حيث كان اهتمام الناس، حين كانوا يكتبون عن الماضي، مُنصبا على معنى

الحادثة ودلالتها لا على حقيقة وقوعها. فالأسطورة، بمعنى ما، تروي قصة حدث حصل في زمان ما، وهي تجعله ممكن الحصول في كل الأزمنة. لذلك، وبسبب صرامة رؤيتنا التعاقبية حول أحداث التاريخ، لا نملك كلمات نعبر بها عن هكذا نوع من الحدوث الدائم، في حين أن الميثولوجيا، بصفتها صياغة فنية، قادرة على الإشارة إلى ما وراء التاريخ وإلى ما هو غير زمني في الوجود البشري، وتساعدنا في التعرف على ماوراء التدافع الفوضوي للأحداث العشوائية، وفي تبصر جوهر الحقيقة.

كانت تجربة التعالي جزءاً من التجربة البشرية. فنحن نسعى وراء معايشة لحظات قليلة من النشوة الروحية والسعادة القصوى. وعندما نشعر باتصال داخلي عميق ونرتفع مؤقتا فوق ذاتنا، نبدو أننا نعيش بتركيز أكثر من حياتنا الإعتيادية، وأننا نُطلق كامل إمكاناتنا، ونقيم داخل إنسانيتا الكاملة. كان الدين واحداً من أهم الطرق التقليدية في إنجاز نشوة روحية عارمة. وإذا لم يستطع الناس تحصيلها في المعابد أو الكنائس أو المساجد، فسيبحثون عنها في مكان آخر، مثل الفن والموسيقى والشعر والغناء وأجواء الروك والرقص والمخدرات والجنس والرياضة. وكما الشعر والموسيقى، فإن الأسطورة توقظ فينا النشوة، حتى في وجه الموت واليأس اللذين يتولدان من تصور العدم والفناء. ومتى توقفت الأسطورة عن إحداث هذا التأثير، فإنها تموت وتصبح عديمة الفائدة.

من الخطأ إذاً اعتبار الأسطورة نمطاً متدنيا في التفكير،

يسوغ لنا، عند وصول البشرية إلى عصر العقلانية، رميها جانباً. فالميثولوجيا ليست محاولة مبكرة لتدوين التاريخ أو فهمه، كما أنها لا تدعي موضوعية قصصها وصحتها. وكما الرواية الأدبية والأوبرا أو الباليه، فإن الأسطورة هي التظاهر بالإعتقاد. إنها لعبة تتعالى على عالمنا المتشظي والمأساوي، وتساعدنا على التقاط إمكانات جديدة حول سؤالنا: "ماذا لو؟" وهو السؤال الذي حفَّزنا على إنجاز بعض أهم مكتشفاتنا في الفلسفة والعلم والتكنولوجيا. ولعل النيندرثاليين، حين عملوا على تجهيز رفاة رفاقهم الموتى لاستقبال حياة جديدة، كانوا أيضاً، منخرطين في نفس اللعبة الروحية في التظاهر بالإعتقاد، التي هي الجامع المشترك عند جميع صناع الأسطورة: "ماذا لو لم يكن هذا العالم كل ما هنالك؟ وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على حياتنا، نفسيا وعمليا واجتماعيا؟ هل سنصبح مختلفين؟ هل سنصير أكثر كمالا؟ وإذا وجدنا أننا في حالة تحول عميقة، ألا يدل هذا، وبطريقة ما، على أن معتقدنا الأسطوري كان صحيحا، لأنها كانت تخبرنا عن شيء مهم في إنسانيتنا، على الرغم من عجزنا عن الإستدلال عليه بطريقة عقلية؟

للبشر خاصية فريدة في حفظ قابليتهم على اللعب والمرح.[2] وهذا على خلاف الحيوانات، التي إذا لم توضع في شروط مصطنعة، تجدها تفقد حسها المبكر بالمرح ما أن تواجه وقائع الحياة القاسية في البرية. في حين، نجد أن البشر المتقدمين في السن، يستمرون في التمتع باللعب بأساليب عديدة.

وكما الأطفال، فإننا نستمر في ابتكار عوالم خيالية. ففي الفن المتحرر من قيود التعليل المنطقي والعقلي، نتصور وندمج أشكالا جديدة لإغناء حياتنا، نعتقد أنها تخبرنا شيئا مهما وحقيقيا بعمق. كذلك في الميثولوجيا، نحن نعتني بفرضية معينة ونبث فيها الحياة عن طريق الطقوس، نتصرف على أساسها، ونتأمل تأثيراتها على حياتنا، ونكتشف أننا حصلنا على رؤية جديدة عن لغز عالمنا المقلق.

إذاً، الأسطورة صحيحة لأنها مؤثرة لا لأنها تزودنا بمعلومات عن حقائق. وإذا لم تستطع تقديم رؤى جديدة حول المعنى الأعمق للحياة، تكون قد أخفقت. أما إذا نجحت وأصبحت فاعلة، بمعنى أنها تدفعنا إلى تغيير ذهنيتنا وقلوبنا، وتعطينا أملا جديدا، وتحفزنا على أن نعيش حياتنا بغنى أكثر، فإنها تكون أسطورة حية. تستطيع الميثولوجيا أن تحدث فينا التحول فقط عندما نتبع توجيهاتها. فالأسطورة هي بالأساس دليل موجِّه، إنها تخبرنا ما يجب علينا فعله لتكون حياتنا أكثر غنى. وإذا لم نطبقها على وضعنا، وتعاملنا معها كحقيقة واقعية، فستبقى غير مُدركة وغريبة، تماما مثل قواعد لعبة الحائط، التي تبدو لنا مربكة حتى نبدأ باللعب.

يمكن القول أن اغترابنا المعاصر عن الأسطورة غير مسبوق، إذ كانت الميثولوجيا في العالم ما قبل الحديث أمراً لا يمكن الإستغناء عنه، لا لأنها ساعدت الناس على جعل معنى لحياتهم فقط، بل لأنها كشفت عن مناطق في العقل البشري كان

يتعذر الوصول إليها لولاها. كانت الأسطورة شكلا مبكرا لعلم النفس. فالقصص التي تخبرنا عن ذهاب الآلهة والأبطال إلى أعماق العالم السفلي، وقطعهم طرقا موحشة وقتالهم الوحوش، هي بالحقيقة تضيء لنا نشاطات النفس الغامضة، وترشد الناس إلى كيفية التعامل مع أزماتهم الباطنبة. لذلك نجد أن فرويد ويونغ، عندما شرعا في تصميم البحث المعاصر حول النفس، إتجها تلقائياً نحو الميثولوجيا التقليدية لشرح تصوراتهما، وقدما تأويلا جديداً للأساطير القديمة.

لا شيء جديداً في هذا، إذ لا توجد نسخة موحدة وحصرية عن الأسطورة. ومع تغير ظروفنا، نحن بحاجة إلى أن نحكي قصصنا بطريقة مختلفة، من أجل استنباط حقائقها فوق الزمنية. وسنجد، في هذا العرض التاريخي الموجز للأسطورة، أن الرجال والنساء في كل زمان، حين يقررون اتخاذ خطوة رئيسية نحو الأمام، يقومون بمراجعة اساطيرهم ليجعلوها تتكلم عن شروط حياتهم الجديدة. وسنرى بالمقابل أيضاً، أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا، وأن العديد من هذه الاساطير، التي ابتكرت في مجتمعات تختلف كثيرا عن مجتمعاتنا الحالية، ما تزال تخاطب مخاوفنا ورغباتنا الجوهرية.

الفصل الثاني

الفترة الباليايثية: ميثولوجيا الصيادين(*)

(٨٠٠٠-٢٠٠٠ ق.م.)

إن الفترة التي أكتمل فيها تطور البشر البيولوجي، هي من أطول الفترات في تاريخهم، وأكثرها غنى في تشكلهم. وقد كانت أيضاً، ومن عدة جهات، زمن رعب ويأس. لم يطور أناس تلك الفترة فكرة الزراعة، ولم يقدروا على العناية بطعامهم، بل اعتمدوا بالكامل على صيد الطعام وتجميعه. كما كانت أهمية الميثولوجيا في تقرير نجاتهم واستمراريتهم بنفس أهمية سلاحهم ومهارتهم التي طوروها لقتل فريستهم وتحقيق درجة تحكم معينة ببيئتهم. وكما فعل النيندرثاليون، فإن رجال ونساء العصر البالياليثي لم يتركوا أي سجل مكتوب عن أساطيرهم، إلا أن القصص التي استمرت في ميثولوجيا الثقافات اللاحقة، ولو بشكل مبعثر، تظهر دور الأساطير الحاسم في طريقة فهم البشر لأنفسهم ولأزماتهم التي نجوا منها. ويمكننا معرفة الكثير عن تجارب وانشغالات البشر الأولين، مثل البايغما Pygmies وسكان استراليا الأصليين، الذين عاشوا، مثلما عاش سكان الفترة

(*) الفترة الباليالیثية Palaeolithic، تعني العصر الحجري القديم، و هي فترة ما قبل تاريخية، تتميز بتطوير أدوات حجرية. وتغطي الجزء الأعظم من زمن البشرية على الأرض (المترجم).

الباليائيثية، في مجتمعات صيد ولم يدخلوا في أية ثورة زراعية.

من الطبيعي أن يفكر الناس الأولون بعبارات الأسطورة والرمز، لأنهم، وكما يخبرنا علماء الإثنولوجيا والإنتربولوجيا، يؤمنون بالبعد الروحي في حياتهم اليومية. إن التجربة التي نسميها نحن بالمقدسة أو الإلهية، أصبحت في أحسن حالاتها على مسافة من الرجال والنساء في المجتمعات الصناعية والمدنية، إلا أنها بالنسبة للأستراليين الأصليين، ليست فقط حقيقة واضحة بذاتها بل هي أكثر وضوحا وواقعية من العالم الملموس. "الزمن الذهبي"(*) - وهو الزمن الذي يختبره الاستراليون أثناء نومهم وفي لحظات الرؤية- هو أوقات لازمنية وفي "كل حين". إنها الرافعة المستقرة والثابتة لحياتنا اليومية والاعتيادية التي يسيطر عليها الموت والتغيير والتتابع اللامتناهي للأحداث ولدائرة الفصول المغلقة. في "الزمن الذهبي" يقطن الأجداد، الذين هم كائنات قوية ومثالية علَّمت البشر المهارات الضرورية لحفظ حياتهم، كالصيد والحرب والجنس والحياكة وصناعة السِلال. لم تكن هذه النشاطات أرضية بل مقدسة، لأنها تجعلهم أقرب إلى "الزمن الذهبي". فعندما يذهب أسترالي إلى الصيد، مثلا، تراه ينمذج سلوكه ليكون أقرب ما يكون إلى الصائد الأول كي يشعر

(*) يعود منشأ تعبير العصر الذهبي إلى الأسطورة اليونانية، التي تحيل إلى زمن البدايات الأولى للبشرية، والتي كانت تتصور على أنها حالة مثالية، حيث كان البشر طاهرون وخالدون وفي حالة سلام ووئام مع بعضهم البعض. وقد انتهي هذا الزمن بسقوط الإنسان في الشهوة والخطيئة، فخرج بالتالي عن طهره. طبعا لا يخلو دين من الأديان من فكرة العصر الذهبي. (المترجم)

أنه متحد معه، وغارق في ذلك العالم المثالي الفائق القوة. تجربة الإتحاد الأسطورية مع "الزمن الذهبي"، هي الوحيدة التي تهب معنى لحياته، وبعد خروجه من تلك التجربة، تراه يسقط بعيدا عن حالة الغنى الأولي ويعود إلى عالم الزمن، الذي يخشى أن يبدده ويختصر كل ما أنجزه وحققه إلى العدم[3].

العالمُ الروحي هو تلك الحقيقة المباشرة والمُلزمة، التي تجعل الأناس الأولين يعتقدون أنها كانت في يوم من الأيام قريبة وسهلة المنال للبشر. في كل الثقافات، نجد أسطورة عن الجنة المفقودة، التي عاش فيها البشر في حالة اتصال قريب ويومي مع الآلهة. كانوا فيها خالدين، وعاشوا منسجمين مع بعضهم البعض، ومع الحيوانات، ومع الطبيعة. في مركز العالم كان هنالك شجرة، جبل، أو قطب عامودي، يصل الأرض بالجنة، ويكون باستطاعة الناس تسلقه بسهولة للوصول إلى عالم الآلهة. ثم حصلت كارثة، بأن انهار الجبل واقتطعت الشجرة، فأصبح الوصول إلى السماء أمرا صعبا أو مستحيلا. ليس المقصود من قصة العصر الذهبي، وهي أسطورة عالمية ومن الاساطير المبكرة الأولى، أن تكون قصة تاريخية. بل انبثقت من تجربة قوية مع المقدس، التي كانت طبيعية واعتيادية عند الناس، وتعبر عن شعورهم المؤلم تجاه الحقيقة الحاضرة ولا يمكن الوصول إليها. إن معظم أديان وميثولوجيات المجتمعات القديمة متشربة بتوق الرجوع إلى الجنة الضائعة[4]. طبعاً، ليست الأسطورة مجرد حنين إلى الماضي، بل هدفها الرئيسي، في كل الأحوال، أن تبين

للناس سُبل العودة إلى عالمهم النموذجي أو المثالي، ليس فقط في لحظات النشوة، بل في أعمالهم الاعتيادية اليومية.

لا يمكن لصيادي الفترة الباليوليثية أن يستوعبوا الفصل الذي نمارسه في زماننا بين الديني والدنيوي، لأنه لم يكن أي شيء من الأشياء أرضياً ودنيوياً. فكل شيء رأوه أو اختبروه كان ظلاً لمثاله الموازي له في عالم الألوهة. ومهما كان الشيء، أي شيء، دنيئا أو وضيعا، فبالإمكان احتواؤه على قداسة[5]. كل شيء فعلوه، كان بالنسبة إليهم، فعل تقديس يضعهم في حالة اتصال بالآلهة. والأعمال الأكثر اعتيادية عندهم، كانت مراسيم دينية تمكن الكائنات الفانية من المشاركة في العالم اللازمني من "كل حين". بالنسبة إلينا، نحن أبناء العصر الحديث، الرمز منفصل بالضرورة عن الحقيقة غير المرئية التي يوجه انتباهنا إليها. ولكن كلمة symballein اليونانية، تعني "أن نطرح معا": ليصبح شيئان متغايران غير منفصلين، مثل الجن والماء في الكوكتيل. فعندما تتأمل أي موضوع أرضي، تكون أيضاً في قلب حضوره السماوي. الإحساس بالمشاركة في الوجود الإلهي، كان ضروريا في الرؤية الأسطورية للعالم، لأن غرض الأسطورة هو أن تجعل الناس أكثر وعيا بالبعد الروحي الذي هو جزء طبيعي من الحياة ويحيط بهم من كل الجهات.

علّمت الميثولوجيات الأولى الناس أن ينظرو من خلال العالم الملموس إلى الحقيقة التي بدت أنها تتضمن أمراً آخر[6]. ولا يتطلب هذا قفزة في مستوى الإيمان، لعدم وجود فاصل

ماورائي بين المقدس والدنيوي في تلك المرحلة. فعندما ينظر الناس الأوائل إلى الحجر، مثلا، لا يرونه مجرد صخرة جامدة لا قيمة لها، بل يرونه متضمنا لقوة واستمرارية وصلابة ونمط وجود مثالي تختلف تماما عن حالة البشر الهشة. فآخَرِية الحجر الشديدة هي التي جعلته مقدساً. في العالم القديم، كان الحجر التجسيد العمومي للقداسة. أيضاً، فإن الشجرة ذات القدرة على تجديد ذاتها بدون أي جهد، تجسد وتظهر للعيان القدرة الحية والخارقة التي حرم منها الرجال والنساء. كذلك، وحين شاهد الناس تناقص واكتمال القمر، رأوا في ذلك شاهداً آخر على قدرات التجدد المقدسة.[7] كل ذلك كان دليلا على قانون قاس ورحيم ومرعب ومواسٍ. لم تكن الأشجار والأحجار والأجساد السماوية في يوم من الأيام موضوعات للعبادة، بل كانت تبجل لأنها تجليات لقوة خفية يمكن رؤية حضورها المؤثر في كل ظواهر الطبيعية، ولأنها تحقق الألفة بين الناس وتوفر لهم واقعا أكثر فعالية.

كانت بعض الأساطير الأولى، التي ربما يعود تاريخها إلى الفترة الباليالیثية، ذات علاقة بالسماء، حيث أوحت للناس التصور الأول عن الألوهة. فعندما حدق الناس في السماء اللانهائية والبعيدة والموجودة بشكل منفصل عن حياتهم الهزيلة، تولَّدت لديهم تجربة دينية.[8] فالسماء المبنية فوقهم بضخامة هائلة، لا يمكن استيعابها ولا يمكن الوصول إليها وهي أزلية. كانت السماء حينها، تمثل جوهر التعالي والمفارقة والآخَرية،

ولا يملك البشر التأثير عليها. كما أن الدراما التي لا تنتهي، والناتجة من رعد السماء وبرقها، وخسوفها ورياحها، ومغيب شمسها، وقوس قزحها، وشهبها ونيازكها، تتحدث عن بعد آخر فاعل ولامتناهي، وهو أن للسماء حياتها الدينامية الخاصة بها. لقد ملأ تأمُّلُ السماء الناسَ بالرعب والابتهاج، بالدهشة والخوف. فالسماء اجتذبتهم ونفَّرتهم. إنها بطبيعتها الذاتية إلهية. وكما وصفها مؤرخ الأديان الكبير رودلف أوتو: "كانت السماء بذاتها، وبدون أية ألوهة مُتخَيَّلة وراءها، غامضة ومذهلة مرعبة وفاتنة."[9]

هذا يُعرِّفُنا على عنصر جوهري لكل من الوعي الأسطوري والديني. ففي عصرنا المتشكك، يفترض الناس غالبا أنهم متدينون لأنهم يطلبون شيئا من الآلهة التي يعبدونها، ويحاولون كسب القوى الكائنة إلى جانبهم، ويريدون حياة طويلة لا سقم فيها ويسعون إلى الخلود، ويعتقدون أن بإمكانهم إقناع الآلهة أن تلبي لهم طلباتهم. بالمقابل، أظهرت الممارسات الدينية المبكرة، أن العبادة لا تتضمن بالضرورة لائحة منافع خاصة، ولم يطلب الناس شيئا من السماء، وكانوا يعرفون جيدا أنهم لن يؤثروا عليها بأية طريقة كانت. في تلك الأوقات المبكرة، اختبرنا العالم المحيط بنا كشيء غامض بعمق، ليضعنا في حالة من الرعب والدهشة، اللذين هما جوهر العبادة. في فترة لاحقة، استعمل بنو إسرائيل كلمة qaddosh لتدل على المقدس، والتي كانت تعني "الآخر المستقل". كانت تجربة التعالي الخالص بذاتها مُشبعة

بعمق، لأنها وهبت الناس تجربة النشوة الروحية التي تطل بهم على وجود مفارق بالكامل لوجودهم، وترفع وجدانهم وخيالهم فوق ظروف حياتهم المحدودة. لم يكن هنالك اعتقاد بأن السماء يمكن أقناعها أو الطلب منها تنفيذ إرادة الكائنات البشرية الفقيرة والضعيفة.

استمرت السماء رمزا للقداسة لفترة طويلة بعد نهاية الفترة الباليليثية. إلا أن تطوراً مبكراً حصل عند الناس، يبين أن الميثولوجيا كانت ستفشل إذا اقتصر كلامها على حقائق مفارقة ومتعالية، وأنها إذا لم تمكن الناس من المشاركة في القداسة بطريقة ما، فإنها ستصبح غريبة عليهم وتذبل في وعيهم. في لحظة ما، ولا نعرف متى، بدأ الناس في أجزاء مترامية الأطراف من العالم في شخصنة السماء، وبدأوا يخبرون قصصاً عن "الله السماء" أو "الله الرفيع" الذي خلق السماء والأرض بيد واحدة من لا شيء. هذا النمط من التوحيد البدائي يعود بالتأكيد إلى الفترة الباليليثية. فقبل البدء بعبادة آلهة عدة، اقتصر الناس في أجزاء مختلفة من العالم، على الاعتقاد بإله واحد قادر، خلق العالم ويدير شؤون الناس عن بعد.

احتوت كل المعابد القديمة على "الله السماء"، حيث وجده الأنتربولوجيون عند القبائل مثل بيجميز (Pygmies)، الاستراليين، والفيوجيانز (Fuegians).[10] كان هذا الإله، السبب الأول لكل الأشياء وحاكم السماء والأرض، ولا يمكن تمثيله بصور وليس له مقام أو ضريح أو كاهن، لأنه منزه عن نظام

التقديس البشري. كان الناس في صلاتهم يحُنون إلى إلههم العالي، ويؤمنون بأنه يراهم ويعاقبهم على أعمالهم السيئة، ومع ذلك فهو غائب عن حياتهم اليومية. يقول رجل القبيلة عنه، بأنه لا يمكن التعبير عنه وليس له شأن بعالم البشر، وقد يلجأون إليه في الأزمات، وما عدا ذلك فهو غائب، ويقال في أكثر الأحيان أنه "رحل بعيدا" أو "اختفى".

أخذت آلهة السماء في بلاد ما بين النهرين، وعند هنود الفيديك Vedic واليونان والكنعانيين تتضاءل. حيث نجد في ميثولوجيات هؤلاء، أن الله العالي هو بأحسن الأحوال شخصية مبهمة وبدون قدرات وهامشية بالمقارنة مع الآلهة الأكثر دينامية وجاذبية وسهلة المنال، كالآلهة إندرا Indra، وإنليل Enlil، وبعل Baal، التي تقدمت لاحقا إلى الواجهة. هنالك قصص تشرح كيف تم عزل لله العالي، حيث تم مثلا خصاء أورانس Ouranos إله سماء اليونان من قبل ابنه كرونوس Kronos، في أسطورة تستعرض بشكل مرعب عجز الآلهة الجنسي، التي تم إقصائها من حياة البشر العادية وأصبحت ثانوية. اختبر البشر قوة الإله بعل المقدسة في كل عاصفة ممطرة، وشعروا بقوة الإلٰهة إندرا كلما تملكهم الغضب الأقصى للقتال. ومع ذلك، فإن آلهة السماء القدامى لم تلامس حياة الناس مطلقا، وقد أظهر التطور الأولي للميثولوجيا، أنها ما كانت لتنجح لو اقتصرت على المفارق للطبيعة، وأن حيويتها لن تستمر إلا إذا كان اهتمامها متمحورا حول الإنسانية.

يذكرنا مصير الإله السماء، بسوء فهم آخر معروف، وهو الافتراض بأن الأساطير الأولى قدمت للناس في عالم ما قبل العلمي، معلومات عن أصل الكون. فقصة الإله السماء تمثل تماما هذا النوع من التخمين. بيد أن هذه الأسطورة كانت فاشلة، لأنها لم تلامس حياة الناس الاعتيادية، ولم تخبرهم شيئا عن طبيعتهم البشرية، ولم تساعدهم على حل مشاكلهم الدائمة. زوال آلهة السماء عند الأولين، يساعدنا على تفسير سبب غياب الله الخالق الذي عبده اليهود والمسيحيون والمسلمون، من حياة الكثير من الناس في الغرب. فالأسطورة لا تقدم معلومات بعنوان أنها حقائق، بل تقدمها، بشكل رئيسي، دليلا للسلوك. ولا تتجلى معانيها إلا حين نمارسها شعائريا أو أخلاقيا. وإذا قدمنا الأسطورة على أنها نظرية فكرية خالصة، نكون قد حولناها إلى شيء غريب ولا يصدق.

ربما تم تخفيض مرتبة الآلهة العالية، ولكن السماء لم تفقد أبدا قدرتها على تذكير الناس بالمقدس. لقد ظل العلو رمز الألوهة الأسطوري، سمة من سمات الروحانية الباليالِيثية. ففي الميثولوجيا والتصوف، نجد الرجال والنساء يسعون بانتظام للوصول إلى السماء، ويبتكرون شعائر وتقنيات للوصول إلى حالة تركيز نشوة روحيتين، تمكنهم من تطبيق قصص الصعود، والارتقاء إلى حالة وعي أعلى. وقد ادعى الحكماء أنهم ارتقوا إلى مستويات متعددة من مراتب الوجود، حتى وصلوا إلى مجال الألوهة. يقال أن ممارسي اليوغا يطيرون في الهواء، وأن

الروحانيين والصوفيين يسبحون في الهواء، وأن الأنبياء يتسلقون الجبال العالية ويخترقون نمط وجود أسمى[11]. توق الناس إلى التعالي الذي تمثله السماء، يجعلهم يشعرون بإمكان الهرب من الوضع الإنساني الضعيف والارتقاء إلى ما يقع وراءه. لهذا السبب تكون الجبال في الميثولوجيا مقدسة، وتكون الوسيط بين الجنة والأرض، وهي الأمكنة التي كان بإمكان رجال، مثل موسى، ملاقاة ربهم فيها. ظهرت الأساطير، التي تتحدث عن الطيران والصعود، في كل الثقافات، لتعبر عن رغبة كونية في التعالي والتحرر من تقييدات الوضع الإنساني. من هنا، لا ينبغي قراءة هذه الأساطير حرفيا. فقصة صعود المسيح إلى السماء، لا يقصد منها تخيل المسيح مخترقا الغلاف الجوي. وعندما يقال أنه أُسري بمحمد من مكة إلى القدس ومن ثم تسلق سُلَّما إلى العرش الإلهي، علينا أن نفهم أنه اخترق مستوى جديداً من الكينونة الروحية. وعندما صعد النبي إيليا إلى السماء بعربة نارية، معناه أنه ترك ضعف الوضع البشري وراءه وارتحل بعيدا داخل عالم القداسة الواقع فوق تجربتنا الأرضية.

يعتقد المتخصصون، أن أساطير الصعود الأولى تعود إلى الفترة الباليالیثية، ولها علاقة بجماعة الشامان Shaman، المتدينين الرئيسيين في مجتمعات الصيد. كان رجل الشامان يجيد ممارسة الإغشاءات والنشوات الروحية، التي كانت رؤاها وأحلامها تلخص تقاليد الصيد وتعطيها معنى روحيا. كان الصيد عملا خطرا، حيث كان الصيادون يتركون قبائلهم في كل مرة

لأيام عدة، وعليهم التخلي عن أمان كهوفهم، ويخاطرون بحياتهم لجلب الطعام لشعبهم. ولكن، وكما سنرى، لم يكن الصيد رحلة منافع فقط، ولكنه مثل باقي نشاطاتهم، كان عملاً ذا بعد غيبي. كان الشروع في رحلة الصيد، بالنسبة إلى رجل الشامان رحلة روحية. وكان يعتقد أن لديه القدرة على ترك جسده والسفر بروحه إلى العالم السماوي، وعندما يذهب في غيبوبة روحية، فإنه يطير في الهواء ويجتمع بالآلهة لأجل شعبه.

نجد في توابيت الكهوف الباليالبثية لجماعة لاسوكس Lascaux في فرنسا وجماعة ألتاميرا Altamira في أسبانيا، رسوماً تصور مشهد الصيد، حيث يظهر إلى جانب الحيوانات والصيادين، رجال يضعون أقنعة طيور، من المفترض أن يكونوا من الشامان. ما زال الشامان حتى يومنا هذا، في مجتمعات الصيد من سيبيريا إلى تييرا دي فييغو Tierra Del Fuego، يعتقدون أنهم عندما يذهبون في غيبوبة روحية، يصعدون إلى السماء ويتكلمون مع الآلهة، كما فعل كل البشر منذ زمن بعيد في العصر الذهبي. يخضع رجل الشامان لتدريب خاص في تقنيات الانتشاء الروحي. ويعاني في بعض الأحيان من حالة اضطراب ذهني في فترة المراهقة، تمثل بالنسبة له، تسامياً على وعيه الأرضي القديم، واستعادة للقدرات التي منحت له في بداية وجوده الإنساني المبكر ثم ضيَّعها لاحقا. في جلسات روحية خاصة، يقع رجل الشامان في غيبوبة روحية مترافقة مع دقات الطبول والرقص، ثم يتسلق شجرة أو عامودا يرمز إلى الشجرة،

جبلا أو سُلَّماً كان ذات مرة صلة الوصل بين السماء والأرض[12]. يصف أحد رجال الشامان الحديثين رحلته في أعماق الأرض ليصل إلى الجنة بهذه الطريقة:

"عندما تغني الناس، أنا أرقص. أدخل أعماق الأرض. أذهب إلى مكان يشبه المكان الذي يشرب فيه الناس الماء، أقطع مسافة طويلة وبعيدة جدا... عندما أخرج، أكون قد تسلقت الخيوط، الخيوط الواقعة هناك في الجنوب... وعندما تصل إلى مكان الله، تجعل نفسك صغيرا... تفعل هناك ما عليك فعله. ثم تعود إلى حيث يوجد الجميع.[13]

ومثل حملة الصياد الخطرة، فإن رحلة الشامان هي مواجهة مع الموت. وعندما يعود إلى مجموعته تبقى روحه غائبة عن جسده، ولا بد من إحيائه من قِبَل زملائه، الذين "يمسكون برأسك وينفخون على جنبات وجهك. هكذا يمكنك تدبير عودتك إلى الحياة من جديد. وإذا لم يفعل لك الأصدقاء ذلك، فستموت... ستموت وأنت ميت".[14]

الطيران الروحي لا يعني أنها رحلة بالجسد، ولكنها نشوة روحية تشعر فيها أن الروح تركت الجسد. لن يكون هناك صعود إلى أعلى السماوات من دون نزول مسبق إلى أعماق الأرض، ولن يكون هنالك حياة جديدة من دون موت مسبق. فكرة الروحانية البدائية تلك تحصل أيضاً في رحلات الصوفيين وممارسي اليوغا الموجودين في كل الثقافات. اللافت هنا، أن

أساطير وطقوس الصعود، تعود إلى فترة التاريخ الإنساني المبكر، مما يعني أن من أهم أحاسيس التوق الإنساني هي التعالي على الوضع الإنساني. وما أن أكمل البشر عملية ارتقائهم الطبيعية (evolutionary process)، حتى تبين لهم أن شوقهم المزمن إلى التعالي كان منغرساً في تكوينهم الإنساني.

ينحصر نشاط الشامان في مجتمعات الصيد، حيث تلعب الحيوانات دورا مهما في روحانيتهم. أثناء فترة التدريب، على رجل الشامان الحديث أن يعيش مع الحيوانات في البرية، وعليه أن يلتقي بالحيوان الذي يُطلعه على أسرار الانتشاء الروحي، ويُعلِّمه لغة الحيوانات، ويصبح رفيقه الدائم. هذا لا يعتبر تخلفا أو انحطاطاً، لأن مجتمعات الصيد، لا تنظر إلى الحيوانات ككائنات دونية، بل ترى أن لديها حكمة متفوقة وتعرف سر إطالة العمر وسر الخلود، وأن الشامان يحصل، بعد اتصاله بهذه الحيوانات، على حياة أفضل. كان يُظن، في فترة العصر الذهبي التي سبقت السقوط، أنه بإمكان البشر التكلم مع الحيوانات، وما لم يستعد رجل الشامان مهارته الأولى التي كانت له قبل زمن السقوط، فلن يكون بإمكانه الصعود إلى عالم الآلهة.[15] ولرحلة الشامان غرض عملي أيضاً، ومثلما كان الصياد يجلب الطعام لشعبه، يؤمن رجال الاسكيمو في غرينلاند مثلا، أن حيوان الفقمة هو ملك لإلهة، وتدعى مدبرة الحيوانات. فعندما يحصل نقص في طرائد الصيد ولحومها، يذهب الشامان لإرضائها من أجل إنهاء المجاعة[16].

من الراجح أن يكون لشعوب الفترة الباليالية أساطير وشعائر مماثلة. إذ يمكن الجزم بأن العضو من فصيلة الهومو سابينز[*] (homo sapiens) كان هو أيضاً "القرد الصياد"، الذي يفترس حيوانات أخرى ويقتلها ويأكلها.[17] تميزت ميثولوجيا العصر الباليالي أيضاً بالتقديس الكبير للحيوانات التي يشعر الإنسان أنه مرغم على قتلها. كانت قدرات البشر على الصيد ضعيفة وواهنة، لأنهم كانوا أصغر وأضعف من أكثر فرائسهم. لذلك كان عليهم التعويض عن ضعفهم بتطوير أسلحة وتقنيات جديدة. غير أن المعضلة الأكبر هي حالة الأحاسيس المتناقضة والمربكة، حيث لاحظ الأنتربولوجيون، أن رجال الطبيعة المعاصرين يشيرون بنحو دائم إلى الحيوانات والطيور كأنها بشر مثلهم، ويروون قصصاً عن بشر أصبحوا حيوانات وبالعكس. فأن تقتل حيواناً يعني أن تقتل صديقاً، لذلك كان يشعر القبلي بالذنب بعد كل رحلة صيد ناجحة. وكون الصيد نشاطا مقدسا ومشحوناً بدرجات توتر عالية، كان الصيد يُختتم باحتفال مهيب محاط بشعائر وتابوات (taboos). كان على الصياد قبل الذهاب في رحلة الصيد، أن يمتنع عن ممارسة الجنس ويبقي نفسه في حالة نقاء روحي، ثم بعد أن يقتل الفريسة، يفصل اللحم عن العظام، ويمدد بعناية هيكل الفريسة العظمي وجمجمة رأسها وجلدها على الأرض في محاولة منه لبث الحياة في الحيوان من جديد.[18]

(*) وهي الفصيلة التي ينتمي إليها جميع البشر على الأرض (المترجم).

يبدو أنه لدى الصيادين الأوائل، أحاسيس مزدوجة مماثلة، فكان عليهم تعلم الدرس القاسي. في عصر ما قبل الزراعي، لم يكن بإمكان البشر رعاية طعامهم، فكان حفظ حياتهم يعني قتل مخلوقات أخرى يشعرون تجاهها بقرابة قوية. كانت فريستهم الرئيسية الثدييات الضخمة (Mammals)، التي كانت تماثلهم في تعابير وجهها وجسدها، بحيث يمكن للصيادين رؤية فزع الفريسة ويطابقونه مع بكائهم وفزعهم، وكان دم الفريسة يتدفق مثل تدفق دمهم. لمواجهة هذه المعضلة التي لا تحتمل، ابتكروا أساطير وشعائر تمكنهم من التصالح مع جريمة قتلهم لنظرائهم في الخلق. وقد استمر بعض هذه الأساطير في ميثولوجيات ثقافات أخرى ومتأخرة، حيث استمر الناس في الشعور بعدم الرضى، من ذبحهم للحيوانات واستهلاكهم لها، لفترة طويلة بعد فترة العصر الباليليثي. كانت الممارسة المركزية تقريبا في نظم الأديان القديمة، هي شعائر التضحية بالحيوان، التي حافظت على نمط احتفالات الصيد القديمة، وكرَّمت الحيوانات التي ضحت بحياتها من أجل حفظ الجنس البشري.

أولى الإنبثاقات الكبرى للميثولوجيا، إذاً، كانت في الزمن الذي تحول فيه "الإنسان الصياد" homo sapiens إلى "الإنسان القاتل" homo necans. أي حين وجد الإنسان صعوبة في قبول أوضاع وجوده في عالم عنيف. فالميثولوجيا، تزدهر غالبا من توتر أو قلق عميق حول مشاكل عملية وجوهرية، لا يمكن إزاحتها أو تخفيفها بحجج منطقية صرف. كان البشر قادرين دائماً

على التعويض عن ضعفهم ومحدوديتهم الفيزيائية من خلال تطوير الطاقات العقلية داخل دماغهم الكبير الحجم. استطاعوا نتيجة لذلك، تطوير مهاراتهم في الصيد، فاخترعوا الأسلحة، وتعلموا كيف ينظمون مجتمعهم بكفاءة قصوى وعملوا معا كفريق. حتى في تلك المرحلة المبكرة، فإن ال homo sapiens كانوا يطورون ما يسميه اليونان باللوغوس logos، الذي هو نمط التفكير العلمي والذرائعي الذي يمكنهم من العمل في العالم بنجاح.

يختلف اللوغوس كثيرا عن التفكير الميثولوجي. وبخلاف الأسطورة، فإن اللوغوس يحيل بدقة إلى حقائق موضوعية. إنه النشاط الذهني الذي نستعمله عندما نريد أن نجعل تحقيق الأشياء في العالم الخارجي واقعاً، وعندما ننظم مجتمعنا أو نطور تقنياتنا. هذا بخلاف الأسطورة، التي هي ذرائعية بالأساس. فالأسطورة إلى الوراء، إلى العالم الخيالي للنموذج المثالي المقدس أو إلى الجنة الضائعة، في حين يتقدم اللوغوس بثبات إلى الأمام، محاولا باستمرار اكتشاف شيء جديد، لتنقية الرؤى القديمة، وخلق اختراعات مذهلة، وإنجاز سيطرة أكبر على البيئة المحيطة. في كل الأحوال، فإن لكل من الأسطورة واللوغوس محدوديته. إلا أن أناس ما قبل العصر الحديث، اعتبروا أن الأسطورة والعقل متكاملان، ولكل منهما فضائه ومجاله الخاص، ولكل منهما مساحة فعاليته الخاصة. كان البشر بحاجة دائماً لكل من نمطي التفكير، فلا يمكن للأسطورة أن تعلم الصياد كيف يقتل طريدته أو كيف ينظم رحلة صيد ناجحة،

ولكنها كانت بالمقابل، تساعده على التعامل مع مشاعره المزدوجة والمربكة أثناء قتله للحيوانات. كان اللوغوس فعالا وعمليا وعقليا، ولكنه لم يستطع تقديم أجوبة عن التساؤلات حول القيمة العليا للحياة البشرية، ولا تلطيف الألم والحزن البشريين.[19] عرف ال *HOMO SAPIENS* إذا، منذ البدايات الأولى، وبشكل غريزي أن لكل من اللوغوس والأسطورة وظيفة خاصة به. فاستعمل اللوغوس ليطور أسلحة جديدة، واستعمل الأسطورة، بطقوسها المرافقة لها، ليواسي ويعزي نفسه بحقائق الحياة المأساوية التي تهدد بسحقه وحرمانه من التصرف بفعالية.

تعطينا الكهوف الجوفية الاستثنائية في ألتمايرا Altamira، ولاسوكس Lascaux لمحة مُحيِّرة عن روحانية العصر الباليالي.[20] حيث تشاهد رسوماً تقديسية لكل من الغزال والثور البري والفرس القزم ورجال شامان متنكرين على هيئة حيوانات، وصيادين مع رماحهم. هذه الرسوم رسمت بعناية ومهارة فائقتين داخل الكهوف الجوفية، حيث يكون الوصول إليها في غاية الصعوبة، والتي لعلها كانت المعابد والكاتدرائيات الأولى. وقد دار نقاش أكاديمي طويل، حول معنى ودلالة هذه الرسوم، التي لعلها تصور حكايات أسطورية محلية لن يتسنى لنا معرفتها، إلا أن الأكيد فيها، هو أنها رسوم تظهر مشهد لقاء عميق بين الناس وأشباه الآلهة التي هي حيوانات نموذجية تزين جدران الكهف وسقوفه. كان على الحجاج أنْ يزحفوا داخل قنوات عالية الرطوبة وخطيرة من أجل الوصول إلى الكهوف الجوفية، وأن يحفروا

عميقا في قلب الظلام حتى يصلوا أخيرا وجها لوجه مع الوحوش المرسومة. هنا، نجد ملامح الصور والأفكار نفسها التي تلهم الشامان أثناء رحلة صيده. وكما كانت جلسات الشامان، فقد كان في هذه الكهوف، على الأرجح، موسيقى ورقص وغناء، وكان هنالك رحلة إلى عالم آخر، تبدأ بالنزول إلى أعماق الأرض، ثم بلقاء الحيوانات في مكان، ذي أبعاد سحرية، بعيد ومنفصل عن الدنيوي والساقط.

تترك هكذا تجربة أثراً قويا على القادمين الجدد، الذين لم يغامروا بالدخول إلى الكهوف من قبل. ومن المحتمل أن تكون هذه الكهوف قد استعملت في شعائر التكريس لتحويل الرجال الصغار في المجتمع إلى صيادين. كانت احتفالات التنصيب أساسية بالنسبة لأديان العالم القديم، بل وما تزال أساسية في المجتمعات التقليدية المعاصرة.[21] كان الشباب المراهقون، في الجماعات القبلية، يؤخذون بعيدا عن أمهاتهم، ويفصلون عن المجموعة، ويُرغمون على اجتياز محنة مؤلمة صُممت لتحويلهم إلى رجال. وكما كانت رحلة رجل الشامان، فإن هذا الاختبار يمثل عملية موت وولادة جديدة، فعلى الصبي أن يميت طفولته ليدخل عالم المسؤوليات الراشدة. كان يجري دفن المُكرَّسين الجدد في الأرض، أو في قبر، ويتم إبلاغهم بأنهم على وشك أن يؤكلوا من الوحش، أو أن تقتلهم الأرواح. كانوا يخضعون لألم جسدي وظلام مركزين، وكانوا عادة يُختتنون أو يوشمون. كانت التجربة مركزة ومؤلمة للغاية، ليتم بها تغيير المكرَّس إلى

الأبد. يخبرنا علماء النفس، أن هذا النوع من العزل والحرمان، لا يقتصر على التسبب في خلل ارتدادي للشخصية، بل يمكنه، إذا تمت السيطرة عليه بشكل مناسب، تعزيز عملية التنظيم البناءة للقوى العميقة داخل الشخص. في نهاية معاناته، يكون الولد قد تعلم أن الموت عبارة عن بداية جديدة، ويعود إلى شعبه بجسد رجل وروح رجل، مواجها إمكانية أي موت قريب ومتوقع، ومدركا أن الموت هو أيضاً مجرد شعيرة وطقس للعبور إلى شكل وجود جديد. أصبح جاهزا للمخاطرة بحياته من أجل شعبه، لصيرورته صيادا ومحاربا.

أثناء معاناة التكريس، يستمع الشاب المبتدئ لأول مرة إلى الأساطير الأكثر قداسة عند قبيلته. هذه نقطة مهمة. فالأسطورة ليست مجرد قصة تتلى في أماكن وأوضاع دنيوية أو مبتذلة. ولأنها تتضمن معارف مقدسة، فلا بد من تلقنها ومعرفتها داخل مناخ طقسي خاص، يجعلها متميزة ومستقلة عن التجربة الدنيوية العادية، ويجعل فهمها متحققا في سياق تحول روحي ونفسي مهيب.[22] فالمثولوجيا هي الخطاب الذي نحتاجه للتحدث عن النهايات القصوى، وعلينا أن نكون جاهزين بالسماح للأسطورة في أن تغيِّرَنا إلى الأبد. تأتي الأساطير مع ممارسة طقوسية لتخترق الحواجز بين المستمع والقصة، ولتساعده في أن تكون القصة قصته الخاصة. لقد صممت الرواية الأسطورية لتقذف بنا وراء الوثوقيات الآمنة المتداولة في عالمنا المألوف وترمينا في المجهول. بدون طقوس التحول المرافقة، تكون قراءة الأسطورة

تجربة ناقصة، تشبه تماماً تجربة قراءة قصائد الأوبرا بدون موسيقى. ما لم يتم التعامل مع الأسطورة كجزء من عملية بعث جديد، من الموت والولادة من جديد، فإن المثولوجيا لا معنى لها.

نحن متأكدون، بدرجة كبيرة، أن أسطورة البطل تم استيلادها من تجارب الطقوس في أضرحة مثل أضرحة لاسوكس Lascaux، ومن تجربة الشامان والصيد. فعلى كل من الصياد والشامان والمكرَّس الجديد، أن يدير ظهره للمألوف ويتحمل المحن المقبلة. عليهم جميعهم مواجهة مشهد الموت العنيف قبل عودتهم بالهدايا لتغذية وإطعام جماعتهم. لقد طورت جميع الثقافات ميثولوجيا مشابهة عن المسعى البطولي، الذي يشعر فيه البطل بأن هنالك شيئاً مفقوداً في حياته أو في مجتمعه. لم تعد الأفكار القديمة التي تربى عليها داخل مجموعته تتكلم إليه. لذلك يترك بيته ويتحمل مغامرات تحدي الموت، يحارب الوحوش، يتسلق جبالا لا يمكن الوصول إليها، يعبر غابات مظلمة، وأثناء العملية، يعود إلى ذاته القديمة، ويكتسب رؤى ومهارات جديدة، يجلبها معه إلى شعبه. فـ بروميثيوس Prometheus[*] سرق النار من الآلهة لأجل البشرية، وعليه تحمل قرون من العقاب المؤلم. أما أينياس[**] فقد أرغم على ترك حياته القديمة وراءه، ورؤية بلاده

(*) هو شخصية أسطورية ضخمة، تظهر في ملحمة هزيود، حيث يسرق النار من الإله زيوس ويعطيها للبشر كي ينتفعوا بها (المترجم).

(**) شخصية في أسطورة طروادة. يقوم برحلة من طروادة، وتقوده الرحلة إلى تأسيس مدينة روما (المترجم).

ملتهبة بالنار، وانحدر إلى العالم الأرضي قبل أن يجد مدينة روما الجديدة. أصبحت أسطورة البطل متأصلة وراسخة، إلى حد أنه حتى حياة الشخصيات التاريخية، مثل بوذا والمسيح ومحمد، يتم الإخبار عنها بطريقة تطابق النسق النموذجي القديم، الذي تمت حياكته لأول مرة في العصر الباليالينثي.

من جديد، حين يخبر الناس القصص عن أبطال قبيلتهم، هم لا يأملون فقط في تسلية سامعيهم. فالأسطورة تخبرنا ما علينا فعله إذا أردنا أن نصبح بشرا كاملين. وعلى كل واحد منا أن يصبح بطلا في وقت ما من حياتنا. ولا بد من دفع كل طفل داخل نفق الولادة الضيق، الذي يشبه قنوات لاسوكس المتعرجة، وعلى الطفل أن يترك أمان الرحم، ويواجه معاناة الدخول في العالم غير المألوف والمرعب. وكل أُم تضع وليدها وتخاطر بحياتها لأجل طفلها، هي أيضاً شخصيةً بطولية.[23] لذلك لا يمكنك أن تكون بطلا، ما لم تكن مهيئا للتخلي عن كل شيء، ولا يوجد صعود إلى الأعالي بدون سقوط وانحدار إلى الظلمات، ولا حياة جديدة من دون الدخول في موت ما. نجد أنفسنا، طوال حياتنا، أننا في وضعية المواجهة وجهاً لوجه مع المجهول، حيث تُعلِّمُنا أسطورة البطل ما علينا فعله. في نهاية المطاف، علينا جميعا مواجهة طقس العبور الأخير، الذي هو الموت.

استمر بعض أبطال العصر الباليالينثي في الظهور في أدبيات الميثولوجيات اللاحقة. فشخصية البطل اليوناني هرقل، مثلا، هو

على الأرجح من بقايا شخصيات زمن الصيد.[24] حيث نجده يلبس جلد الحيوان، مثل رجل الكهف، ويحمل معه مضرب. هرقل رجل شامان، اشتهر لمهارته في صيد الحيوانات، ويزور العالم السفلي، ويسعى لحيازة فاكهة الخلود، ويصعد إلى عالم الآلهة في جبل الأولمبس. من جديد، فإن إلهة اليونان أرتيموس Artimus، المعروفة ب"آلهة الحيوانات"،[25] هي صائدة وذات طبيعة متوحشة، ويمكن أيضاً أن تكون شخصية من العصر الباليائيثي.[26]

كان الصيد نشاطا محصورا بالذكور، ومع ذلك، فقد كان أحد أقوى الصيادين، في فترة العصر الباليائيثي، أنثى. فنجد أن التماثيل الصغيرة الأولية كانت على هيئة إمرأة حامل، وهي تماثيل وجدت في كل من إفريقيا، وأوروبا والشرق الأوسط، ويعود تاريخ جميعها إلى تلك الفترة. فأرتيمس كانت بكل بساطة، أحدى تجسيدات الإلـٰهة العظمى، وذات صفات إلهية مرعبة. لم تكن ربَّة الحيوانات فقط، بل كانت مصدر الحياة أيضاً. كما أنها لم تكن أُماً مربية في الأرض، بل كانت جموحة وإنتقامية ومتطلبة. كانت أرتيماس مشهورة بتعطشها للقرابين وسفك الدماء، عند حصول مخالفة أو تدنيس لمراسيم الصيد. استطاعت الإلـٰهة المرعبة أيضاً الإستمرار في فترات ما بعد العصر الباليائيثي. ففي مدينة كاتال هيويوك (Catal Huyuk) في تركيا مثلا، والتي يعود تاريخها إلى سبعة أو ستة آلاف سنة، كشف علماء الآثار عن صخور كبيرة لمجسمات إلـٰهة في حالة

وضع، وكان إلى جانبها أحيانا بقايا حيوانات: قرون ثور وجمجمة خنزير بري وبقايا صيد ناجح، وأيضاً رموز ذكرية.

لماذا أصبحت الإلـٰهة مهيمنة في مجتمع ذكوري عدواني؟ لعل هذا يعود إلى استياء لا واع من الأنثى. فإلهة كاتال هيويوك تعطي الولادة للأبد، ولكن على شريكها الثور أن يموت. مخاطرة الصيادين بحياتهم لدعم وإعالة نسائهم وأطفالهم، والذنب والقلق الناتجان عن الصيد، مدمجان مع الإحباط الناتج عن طقوسية العزوبة، كل ذلك تم إسقاطه على صورة إمرأة قوية، تتطلب سفكا لا ينتهي للدماء.[27] من الممكن أن يكون الصيادون رأوا في النساء مصدر الحياة الجديدة، وأنهن ـوليس الذكور الفانين- اللاتي يضمنَّ استمرارية القبيلة. أصبحت الأنثى إذاً أيقونة مهيبة مُلهِمة للحياة نفسها - الحياة التي تتطلب قرابين بدون توقف من الرجال والحيوانات.

هذه اللمحات المتناثرة حول ماضينا الباليايثي، تظهر أن الميثولوجيا لم تكن علاجا مريحا. إذ أنها أرغمت الرجال والنساء على مواجهة وقائع الحياة والموت التي لا ترحم. كان لدى البشر رؤى مأساوية. عمَّروا ليقيسوا مقدار السماوات، غير أنهم أدركوا، أن بإمكانهم فعل ذلك إذا واجهو فنائيتهم وتركوا العالم الآمن وراءهم، وانحدروا إلى الأعماق، وماتوا لأجل نفسهم القديمة. ساعدت الميثولوجيا مع الطقوس المرافقة لها، الباليايثيين على الإنتقال من مرحلة إلى أخرى، بحيث أنه عندما يأتي الموت أخيرا، كان ينظر إليه كعملية تكريس نهائية لنمط

وجود آخر مجهول بالكامل. هذا التصور المبكر لم ينته ولم يزل أبدا، بل استمر في توجيه الرجال والنساء أثناء شروعهم في إحداث الثورة التالية من تاريخ البشرية.

الفصل الثالث

الفترة النيوليثية(*): ميثولوجيا المزارعين (٨٠٠٠- ٤٠٠٠ ق.م.)

قبل عشرة آلاف سنة تقريبا، اخترع البشر الزراعة، ولم يعد الصيد مصدر طعامهم الرئيسي، لاكتشافهم الواضح أن الأرض مصدر إنماء لا ينفذ للطعام. لم يكن هنالك تطورات تذكر للجنس البشري عدا الثورة الزراعية. ويمكن تلمس خشية وسرور ورعب المزارعين الرواد، في الميثولوجيا التي ابتكروها للتكيف مع ظروف حياتهم الجديدة، والتي حُفِظت أجزاءٌ منها في ميثولوجيا الثقافات اللاحقة. كانت الزراعة نتاجا للوغوس، إلا أنها وعلى خلاف الثورة التقنية في أيامنا الحالية، لم تكن بنظر الأوائل مشروعا دنيويا صافيا، بل كانت بمثابة صحوة روحية عظيمة، وهبت الناس فهما جديدا بالكامل عن أنفسهم وعالمهم.

تمت مقاربة علم الزراعة الجديد برهبة دينية.[28] ومثلما كان أناس الفترة الباليوليثية يعتبرون الصيد عملا مقدسا، فإن عمل الزراعة كان أيضاً مقدساً. فعلى المزارعين أثناء حرثهم للحقول وتجميع المحاصيل أن يكونوا في حالة نقاء روحي، وحين شاهد المزارعون نزول البذور إلى أعماق الأرض ولاحظوا اختراقها

(*) الكلمة تعني: فترة العصر الحجري الجديد.

للظلمات لتجلب بشكل مدهش أشكال حياة جديدة، أدركوا حينها أن هنالك قوة خفية تعمل، وكان المحصول بمثابة تجل وظهور للطاقة الإلهية، وعندما حرث المزارعون الأرض وجلبوا الطعام لجماعتهم شعروا بأنهم دخلوا عالما مقدسا وأنهم شاركوا في تحقيق تلك الوُفرة الإعجازية.[29] بدا وكأن الأرض تحفظ المخلوقات والنباتات والحيوانات والبشر داخل رحم حي.

تم تصميم الطقوس لتجديد تلك القوة خوفا من أن تستنفد ذاتها. فكانت البذور الأولى "ترمى بعيدا" كقرابين، وتُترك فاكهة المحصول الأولى بدون قطاف، كطريقة لتجديد تلك الطاقات المقدسة. بل توجد أدلة، على أن البشر في وسط أميركا وأجزاء من أفريقيا وفي جزر الباسيفيك وجنوب الهند، كانت تُقدَّمُ كقرابين. هنالك مبدآن، هما بمثابة الأساس لتلك الطقوس: **أولهما**، أن لا تتوقع شيئا من لا شيء، فلكي تأخذ عليك أن تعطي شيئا بالمقابل .**ثانيهما**، يمثل رؤية تقديسية للواقع، إذ أن القداسة لم تكن شيئا ماورائيا ومفارقا للعالم الطبيعي، بل يتم مقابلتها والتعرف عليها من خلال الأرض ومنتوجها الذي هو مقدس بذاته. كان جميع الآلهة والبشر والحيوانات والنباتات، يشاركون التكوين نفسه، ويمكنهم بالتالي سند واستكمال بعضهم البعض.

اعتبرت الجنسانية البشرية، مثلا، إلهية، تماما مثل القوة الإلهية التي تثمر الأرض. كان يُنظر إلى المحصول، في الميثولوجيا النيوليثية، على أنه ثمرة زواج مقدس. فالتربة هي

الأنثى، والبذور هي السائل المنوي الإلهي، والمطر هو جُماع السماء والأرض. لذلك، كان أمرا اعتياديا لدى الرجال والنساء، أن يمارسا الجنس معا بطريقة طقوسية عندما يزرعون محاصيلهم، إذ من شأن فعل الجُماع هذا، الذي هو فعل مقدس، أن ينشِّط طاقات التربة الخلاقة. هذا يشبه تماما محراث المزارع الذي هو بمثابة العضو الذي يفتح رحم الأرض ويملأه بالبذور. وقد بيَّنَ الإنجيل (العهد القديم)، أن هذا النوع من الطقوسية الجنسية كان يمارس عند بني إسرائيل القديمة في القرن السادس قبل الميلاد، وحتى مجيء حملة بعض الأنبياء الغاضبة مثل حزقيل وهوشع. بل نجد في معبد أورشليم، إحتفالات تكريمية لأشيرا Asherah، إلهة الخصوبة عند الكنعانيين، ومأوى المومسات المقدسات.[30]

نشير هنا، إلى أنه في المراحل المبكرة للثورة النيوليثية، لم يكن يُنظر إلى الأرض كأنثى.[31] ففي الصين واليابان كانت الأرض غير محددة الجنس، ومن المحتمل أن يكون لأمومة المرأة في الحياة العائلية، دور في اتخاذ الأرض لاحقا خاصية الأنثى المُربِّية. كما أنه، وفي أجزاء أخرى من العالم، لم تكن الأرض مشخصنة، بل كانت توقر كشيء مقدس بذاته. لقد أنتجت الأرض من رحمها كل الأشياء بنفس الطريقة التي تلد المرأة فيها طفلها. وقد تخيلت بعض الاساطير الأولى عن التكوين، في أوروبا وشمال أميركا، أن البشر الأوائل انبثقوا من الأرض مثل النبات، فحياتهم تبدأ في العالم السفلي مثل البذور، إلى أن يرتفع الناس الجدد إلى السطح، أو ينموا مثل الأزهار ثم تقطفهم

أمهاتهم البشرية.(32) وحين تخيل الناس أنفسهم صاعدين إلى المرتفعات من أجل الإتصال بالآلهة، فقد ابتكروا الآن طقوسا للإتصال بالمقدس الكائن في جوف الأرض. نجد الممرات النيوليثية التي تم اكتشافها تشبه أنفاق الباليوليثية في لاسوكس. ولكن، وبدلا من الذهاب في جوف الأرض للقاء الحيوانات المقدسة في الكهوف السفلية، يشعر المتعبدون الجدد، أنهم يدخلون رحم أمهم الأرض، ويمارسون عودة روحية أو صوفية إلى مصدر كل الكائنات.(33)

علمت أساطير التكوين تلك، الناسَ بأنهم ينتمون إلى الأرض مثلما تنتمي الصخور والأنهار والأشجار إليها، فلا بد لهم بالتالي من إحترام إيقاعها الطبيعي. وقد عبر آخرون عن إنتمائهم العميق للمكان، برابط أعمق من الرابط العائلي أو الأبوي. هذا النوع من الأساطير كان مشهورا بنحو خاص في اليونان القديمة، حيث اعتبرت أن إيريكثونيوس Erechthonius، ألملك الأسطوري الخامس لأثينا، ولد من تراب مقدس من أكروبوليس Acropolis، وهو حدث مقدس ظل يُحتفل بذكراه في ضريح خاص منذ تاريخ مبكر.

جعلت الثورة النيوليثية الناسَ واعين بطاقة خلاقة منتشرة في أرجاء الكون، التي كانت في البداية قوة مقدسة غير متميزة، جعلت من الأرض تجليا لألوهتها. غير أن الخيال الميثولوجي أصبح لاحقاً أكثر تماسكا وتفصيلا، ليصير ما كان مبهما في البداية أكثر تعريفا وتحديدا. ومثلما أدى تمجيد السماء لاحقا إلى

شخصنة الإله السماء، فإن الأرض الأم والمربية أصبحت هنا الإلٰهة الأم. حيث عرفت في سوريا بإسم أشيرا Asherah عشيقة إيل El الإله الأعلى، أو بإسم أنات Anat إبتة إيل. وكانت في سومر sumer في بلاد ما بين النهرين تدعى إنانا Inanna، وفي مصر إزيس Isis، وفي اليونان أصبحت هيرا Hera وديميتر Demeter وأفروديت Aphrodite. وقد انصهرت الإلٰهة الأم مع الأم العظمى عند مجتمعات الصيد، مبقية على بعض خصائصها المرعبة. فأنات، مثلا، محاربة قاسية ولا ترحم، وتُصوَّرُ غالبا بأنها تخوض غمار بحر من الدم، وديميتر توصف بأنها هائجة ومنتقمة، وحتى أفروديت، إلهة الحب، تتطلب إنتقاما مرعبا.

من جديد، فإن الميثولوجيا ليست حول الهروب من الواقع. فالأساطير النيوليثية استمرت في إجبار الناس على مواجهة حقيقة الموت. كما ان قصصها لم تكن أناشيداً رعوية، و الإلٰهة الأم لم تكن إلٰهة حنونة مواسية، لأن الزراعة لم تُختبر كعمل مسالم وتأملي، بل كانت معركة دائمة وصراعا يائسا ضد العقم والجفاف والمجاعة، بل وضد قوى الطبيعة العنيفة، التي هي أيضاً تجليات لقوة مقدسة.(34) لم تكن ترميزاتهم الجنسية عن الزراعة، تعني أن الناس اختبروا الزراعة كعلاقة حب رومانسية مع الطبيعة. فكما كان التناسل البشري بالنسبة للأم والطفل خطراً للغاية، كانت حراثة الحقول أيضاً تُنجز بعد عمل شاق ومُضنٍ. وفي كتاب التكوين من العهد القديم، كانت خسارة الجنة الأصلية بمثابة السقوط في حياة الزراعة. في جنة عدن، تَنعَّم

البشرُ الأوائل بجنة الله بدون جهد يذكر، ثم أصبحت المرأة، بعد السقوط منها، تُنجِبُ الأطفال بحزن، وأصبح على الرجل انتزاع عيشه من تربة الأرض بعرق جبينه.[35]

في الميثولوجيا المبكرة، كان انتشار الزراعة يحصل بطريق العنف، والطعام يُنتج فقط بالحرب الدائمة ضد قوى الموت والدمار المقدستين. كان على البذرة اختراق جوف الأرض ثم تموت موتا مؤلما ومأساوياً لتُخرج آخر المطاف ثمارها. أما أدوات الزرع فبدت كأسلحة: تُطحَنُ بها الذرة، ويُسحَقُ بها العنب ليُصبِح سائلا كثيفاً قبل أن يُصبح خمراً. كل هذا نراه في أساطير الإلـٰهة الأم، التي يُمزِّقُ جميع أخلائِها، وتُبتر أطرافُهُم، ويُشوهون بوحشية، ويُقتلون قبل استطاعتهم النهوض مع المحاصيل إلى حياة جديدة. تتكلم جميع هذه الاساطير عن صراع حتى الموت. ففي الأساطير البطولية القديمة التي يعود زمنها إلى العصر الباليوليثي، عادة ما يكون الذي يُقدم على رحلة صيد خطرة من أجل أن يجلب المساعدة لشعبه، بطلاً ذكراً. إلا أنه، وبعد الثورة النيوليثية، أصبح الذكور بلا حيلة وفاقدي الفعالية، وأصبحت الإلـٰهة الأنثى هي التي تهيم في الأرض، وتتصارع مع الموت، وتجلب الغذاء للجنس البشري. أصبحت الأم الأرض رمز البطولة الأنثوية في كل الأساطير التي تتكلم بشكل أساسي عن التوازن والتناغم المتجدد.

بدا هذا الأمر واضحا في أسطورة الإلـٰهة أنات، أخت وزوج بعل، إله الريح. فلم تعد ترمز إلى الصراع في عملية

الزراعة فقط، بل إلى صعوبة حفظ الكمال والتناغم. كما أن بعل، الذي يجلب المطر للأرض الجافة، أصبح منخرطاً في معركة خلاقة ودائمة مع الوحوش، التي هي قوى الفوضى والتحلل. ففي يوم من الأيام، هاجمه موت Mot، إله الموت والعقم والجفاف، الذي يهدد دائماً بالعودة ليحول الأرض إلى قِفارٍ مهجورة وقاحلة. أثناء مواجهة بعل للموت، كان بعل ولأول مرة ممتلئاً رعباً، فاستسلم بلا مقاومة، ومضغه الموت كطبق من لحم ضان شهي، ثم أنزله إلى العالم السفلي، أرض الموتى. مع موته، لم يعد بعل قادرا على جلب المطر إلى الأرض، أخذت الخضار تذبل وتموت وسط مناحة عامة. عندها، أصبح إيل والد بعل، الذي هو أيضاً نموذج الإله العالي، بلا حيلة. وعندما يسمع بموت بعل، ينزل عن عرشه المرتفع، ويلبس ثيابا خشنة، ويجرح وجهه على طريقة الحداد التقليدية، ومع ذلك لم يتمكن من إنقاذ إبنه. أصبحت أنات حينها الإلـٰهة الفعالة الوحيدة، فتجوب الأرض، ممتلئة بالأسى والغضب، وتبحث بذهول عن خليلها، عن نصفها الآخر. تخبرنا النصوص السورية التي حفظت هذه الأسطورة، أن أنات تحن إلى بعل كما تحن البقرة إلى عجلها والنعجة إلى حملها.(36) أصبحت الإلـٰهة الأم حادة الطباع ومفترسة وخارجة عن السيطرة، كحالة الحيوان الأم عندما يكون صغارها في خطر. عندما تجد أنات بقايا بعل، تقيم مأدبة دفن كبيرة على شرفه، وتقدم عزّائها إلى إيل، ثم تتابع بحثها عن موت. وعندما تجده، تشقه بمنجل طقسي إلى نصفين، ثم تنخله

في منخل وتحرقه وتطحنه في مطحنة، ثم تذري لحمه فوق الحقول، أي تعامله بنفس الطريقة التي يعامل فيها الفلاح حبوبه .

ولأن مصادرنا غير كاملة، فإننا لا نعلم كيف استطاعت أنات أن تعيد بعل إلى الحياة. إلا أنه وبسبب أن كلاً من بعل وموت هو إله، فلا يمكن القضاء بالكامل على أي منهما، وتستمر المعركة بينهما، وسيُنتَجُ المحصولُ كل عام فقط داخل أسنان الموت. في نسخة من نسخ الأسطورة، تستعيد أناتُ بعلَ بالكامل، ثم يهاجمه موت مرة ثانية، إلا أن ردة فعل بعل هذه المرة تكون في غاية الشراسة، فيعود المطر إلى الأرض، وتفيض التلال بالعسل، وتمطر الجنات زيتا نفيساً، وتنتهي القصة بجمع شمل جنسي بين بعل وأنات، كترميز للقداسة والكمال. هذه القصة، يتم إحياء شعائرها مع بداية كل سنة جديدة.

نجد نمط الأسطورة نفسه في مصر، مع العلم أن إزيس isis أقل قوة من أنات. حيث كان أوزيرس Osiris، ملك مصر الأول، يُعلِّم شعبه علوم الزراعة. ثم قام أخوه سِث Seth، الطامح للعرش، باغتياله. فأخذت إزيس، أخته وزوجته، تجوب العالم، بحثا عن جسده. وعندما تجد الجثة، تتمكن من إحيائه فقط للفترة التي يجعلها تحمل منه بهورس Horus، الإبن الذي سيكمل خطه ونهجه، قبل أن يموت هو أيضاً من جديد. ثم يقطع جسد أوزيرس إلى قطع، وكل قطعة تدفن، مثل البذر، في امكنة مختلفة من أنحاء مصر. يصبح أوزيرس حاكم دوات duat، أي عالم الأموات، ويكون في كل سنة مسؤولا عن المحصول. يتم

تمثيل موت هورس وتقطيعه، بطريقة طقسية أثناء حصاد المحصول ودرسه. كان إله الموت على الأرجح، إله المحصول أيضاً، لإظهار حتمية التداخل بين الحياة والموت. فلا يمكنك الحصول على الواحد من دون الآخر، والإله الذي يموت ثم يعود من جديد إلى الحياة، يلخص بحركته هذه حركة الكون بأسره، التي تشبه أيضاً نمو وذبول المواسم. قد يكون هنالك حياة جديدة، إلا أن الفكرة الاساسية وراء أسطورة الآلهة التي تتعرض للموت، هو أن المصيبة وسفك الدماء يحصلان دائماً، وأن انتصار قوى الحياة لن يكون كاملاً.

يبدو هذا جليا، بشكل خاص، في الأسطورة التي تعيد سرد قصة نزول إلٰهة بلاد ما بين النهرين إنانا Inanna إلى العالم السفلي، والتي يمكن قراءتها كإحتفال تدشيني آخر في الأقاليم المنخفضة، وتجربة موت تقود إلى حياة جديدة. لم يكن لـ إنانا دوافع خير أو إحسان في رحلتها الخطيرة إلى أعماق الأرض. وما يمكن الإخبار عنه وفق مصاردنا، غير المكتملة، أن غايتها كانت اغتصاب عرش أختها إيرشكيغال Ereshkigal، ملكة جهنم وربَّة الحياة أيضاً. قبل تمكن إنانا من دخول قصر أختها الزرقاوي، كان عليها اجتياز بوابات الجدران السبعة في مدينة أختها. وعند كل محطة عبور، يتحداها حارس البوابة، ويرغمها على تمزيق قطعة من ثيابها، بحيث، وعندما تصبح في حضرة أختها، تكون قد جردت من كامل دفاعاتها. ومع فشل ضربتها، يحكم قضاة العالم السفلي السبع عليها بالموت، ثم يعرض

جثمانها على رأس رمح مُرَوَّس.

بيد أن إنانا يتم تخليصها من قبل ألهة آخرين، وتكون عودتها إلى الأرض، بصحبة حشد من الشياطين، إنتصارا ورعبا. عندما تصل إنانا بيتها، تجد أن زوجها، الراعي الوسيم الشاب دوميوزي Dumuzi، قد تجرأ وجلس على عرشها. وبغضب شديد تحكم إنانا عليه بالموت، إلا أن دوموزي يهرب، فتطارده الشياطين، الذين يرغمونه على النزول إلى العالم السفلي ليأخذ مكان إنانا. إلا أن صفقة تُعقد، بين دوموزا وأخته جشتينانا Geshtinanna، تقضي بأن تُقسَّم السنة بينهما، ويقيم كل واحد منهما ستة أشهر مع إيرشكيغَل Ereshkigal في العالم السفلي. مع مغامرة إنانا هذه، تغير العالم إلى الأبد، وأثناء غياب دوموزي، أخدت آلهة الخضرة، تحدث تبدلا في الفصول. وعندما يعود دوميوزي إلى إنانا، تعود الحياة إلى الأرض مع ولادة الحملان، ونثر الحبوب الذي يعقبه بسرعة موسم الحصاد. ومع عودة دوموزي إلى الأرض السفلية، تبدأ معاناة الأرض من جفاف الصيف الطويل. ليس هنالك نصر نهائي على الموت. لذلك يختتم الشعر السومري سرده للأسطورة بصرخة: "يا إريشكيغَل! عظيم مجدك!"[37] كان المشهد الأكثر تأثيراً في القصة، هو نحيب النساء، خاصة والدة دوميوزي، وهي تنعي إبنها: "غريب في مكان غريب، كان ذات مرة حياً، وهو الآن ممدد مثل ثور صغير هوى إلى الأرض".[38]

ليست الإلـٰهة الأم مُخلِّصة، بل هي سبب الموت والأسى.

فرحلتها عبارة عن تدشين وشعيرة لعملية التحول المطلوبة منا جميعا. تنزل إنانا إلى عالم الموت، لمقابلة أختها، التي هي الجانب المدفون والمؤكد من كينونتها ووجودها. فـ إريشكيغَل تُمثل الحقيقة القصوى، وهذا نجده في العديد من الأساطير التي تعود إلى تلك الحقبة، حيث كان اللقاء بالإلـٰهة الأم يمثل أقصى مغامرة البطل، والإنارة الفائقة. كانت تصور إريشكيغل، إلـٰهة الحياة والموت، بأنها تلِد باستمرار. وللوصول إليها واكتساب بصيرة حقيقية، كان على إنانا أن تضع ثيابها التي تحميها من ضعفها جانبا، وأن تفكك غرورها، وتميت ذاتها، وتهضم ما يبدو معارضا ومؤذيا لها، وتقبل ضعف التحمل. هذا يعني بعبارة أخرى، أنه لا وجود لحياة بدون موت وظلمة وحرمان.[39]

تركز الطقوس المترافقة مع قصة إنانا، على مأساة قصتها وعلى حرمانها من الإحتفال بجمع شملها مع ديميوزي في أوقات الربيع. ولأن هذه الأسطورة تمثل بعمق تجربة القانون الجوهري للوجود والبقاء، فقد كان لها إنتشار واسع في الثقافات اللاحقة. حيث سُميت إنانا عشتار Ishtar من قبل البابليين، وأستارت Astarte (أو أشيرا Asherah) في سورية. وفي الشرق الأدنى، كان دوميوزي يعرف بـ تموز، الذي رثته في موته نساء الأقليم كله.[40] وفي اليونان، كان يسمى أدونيس، لأن النساء في عالم الساميين يندبن غياب "سيِّدَهُنَّ" (أدون Adon). ورغم تغير قصة أدونيس مع السنين، إلا أن شكلها الأصلي، ظل متطابقا مع بنية الأسطورة السومرية الاساسية، التي تظهر الإلـٰهة تسلِّم عشيقها

الصغير للموت،[41] تماما وكما فعلت إلـٰهة الصيادين العظيمة، فإن إلـٰهة النيوليثيين الأم، برهنت أنه، وعلى الرغم من ظهور الرجال أكثر قوة من النساء، إلا أن النساء في الحقيقة هن الأقوى والمتحكمات.

نجد هذا واضحاً أيضاً في أسطورة ديميتر Demeter اليونانية وإبنتها بيرسِفني Persephone، التي يعود زمانها بالتأكيد إلى العصر النيوليثي.[42] ديميتر هي إلهة الحبوب التي تحمي محاصيل وثمار الأرض، وعندما يخطف هايدس Hades، حاكم العالم السفلي ابنتها بيرسِفني، تترك ديميتر جبل الأولمبس وتجوب بحزن مرهِق العالم كله. وفي حالة غضبها الشديد، تحبس الموسم، وتهدد بتجويع الكائنات البشرية، ما لم تعد إبنتها كور Kore (الفتاة). مع التنبه للخطر المحدق، يرسل زيوس Zeus هرمس Hermes، رسول الآلهة، لينقذ كور، ولكن ولسوء الحظ تكون كور قد أكلت بذور شجر الرمان أثناء بقائها في العالم السفلي، وتكون بالتالي مجبرة على تمضية أربعة أشهر من السنة مع هايدس، الذي أصبح الآن زوجها. وعندما تلتقي مجددا مع أمها، ترفع ديميتر الحظر، وتعود الأرض مثمرة من جديد.

ليست هذه مجرد استعارة ومجاز لوصف الطبيعة. فشعيرة ديميتر لا تتطابق مع نثر الحب ولا مع الحصاد. ويمكن لنزول بيرسفني داخل الأرض، أن يشبه ما تفعله البذرة. إلا أنه في منطقة البحر المتوسط، تأخذ البذرة عادة اسابيع عدة لتنمو، وليس أربعة أشهر. مثل أسطورة إنانا، فإن هذه قصة أخرى عن

الإلهة التي تذهب ثم تعود. إنها أسطورة عن الموت. في اليونان القديمة، ديميتر، إلهة الحبوب، هي أيضاً مدبرة شؤون الموتى، وتترأس عبادة سرية في إلوسِس Elieusis، قرب أثينا. كانت تلك شعائر سرية، ولكن يبدو أنها كانت ترغم المُكرَّسين على قبول حتمية الموت كجزء أساسي من الحياة، ليجدوا بالتالي أنها –أي الحياة– فقدت رعبها. الشعائر الفاعلة هي التي تخلق تأثيراً لا يمحى للأسطورة في أذهان وقلوب الذين مروا بتجربة هذا التكريس الطويل. المهم أنه، لا توجد أية إمكانية لتحقيق نصر نهائي على الموت، وعلى كور التناوب بين العالم الفوقي والعالم السفلي إلى الأبد. فلن يكون هنالك حبوب أو طعام أو حتى حياة، بدون موت العذراء الرمزي.

نعلم القليل عن أساطير إلسِنيان Eleusinian، غير أن الذين شاركوا في اختبارات هذه الشعائر، كانوا مربكين حين سُئِلوا عن اعتقادهم بأن بيرسيفون قد نزلت فعلا إلى داخل الأرض، بالطريقة التي تشرحها الأسطورة. كانت الأسطورة صحيحة، لأنه أينما تجول بنظرك، تجد أن الحياة والموت لا يفترقان، وأن الأرض ماتت وعادت إلى الحياة. كان الموت مرعبا، مخيفا ولا يمكن تجنبه، ولكنه لم يعد كذلك في النهاية. فإذا أنت قطعت نبتة، ورميت غصنها الميت بعيدا، فسنجد أنه سيكسب حياة جديدة. الزراعة الكفء هي التي تقودنا نحو تفاؤل جديد.[43] على البذرة أن تموت لكي تُنتج القمح والحبوب، وتشذيب النبات مفيد لها ويساعد على تحقيق نمو جديد. وقد أظهر طقس

التدشين في إلسيس، أن مقابلة الموت، شكل من أشكال تشذيب البشر، يؤدي إلى بعث روحي جديد. هذا المواجهة لا تجلب الخلود - لأن الآلهة فقط يعيشون إلى الأبد- ولكنها تمكنك من العيش بدون خوف، وبالتالي أكثر إمتلاءاً على الأرض هنا، وتمكنك أيضاً من النظر بهدوء في وجه الموت. في كل يوم، نحن مرغمون بالطبع على إماتة الذات التي أنجزناها. هكذا كان الأمر أيضاً في الفترة النيوليثية، حيث ساعدت أساطير وشعائر العبور، البشر على قبول لا-أزليتهم، وعلى الإنتقال إلى مرحلة الحياة التالية، لتكون لدينا الشجاعة على التغير والنمو.

الفصل الرابع

الحضارات الأولى
(٤٠٠٠- ٨٠٠ ق.م.)

حوالي سنة 4000 قبل الميلاد، خطت البشرية خطوة كبيرة إلى الأمام عندما بدأت ببناء المدن. كان ذلك في بلاد ما بين النهرين ومصر حوالي العام 4000 ق.م.، ولاحقا في الصين والهند وكريت. وقد اختفى البعض من هذه الحضارات الأولى بدون أن تترك أي أثر تقريبا. ويمكننا التعرف على الاستجابة الأولى لتحدي التحضر، التي كانت في بلاد الهلال الخصيب، المعروفة في أيامنا بالعراق، في الميثولوجيا التي تحتفل بحياة المدينة.

ازداد الوعي الذاتي في الحياة البشرية، وأصبح بإمكان الناس الآن التعبير عن تطلعاتهم بتقنيات مدنية. وكان اختراع الكتابة، يعني إمكانية صياغة تعابير أدبية عن أساطيرهم قادرة على الإستمرار. لقد دخلوا الآن في العصر التاريخي، حيث تسارعت نسبة التغير في المدن، وأصبح الناس أكثر وعيا بسلسلة الأسباب والأثار. كما أن التكنولوجيا الجديدة، وهبت قاطني المدينة سيطرة أكثر على بيئتهم، وأخذ تمايزهم عن الطبيعة يزداد. كان هذا زمن التشويق والتحرر والكبرياء.

بيد أن تغيراً بهذا الحجم يوحي أيضاً بخوف كبير. لقد قيل أن التاريخ عملية عدمية، حيث يتطلب كل تطور جديد دماراً وفناءاً لما كان قبله.[44] هذا المبدأ، نجده مُنطبقاً بوضوح في مدن ما بين النهرين، حيث تطلبت المباني المشادة من حجارة طينية صيانة دائمة وإعادة بناء دورية، وتم تشييد هياكل جديدة فوق بقايا أجدادهم المدمرة، وصارت عملية التآكل والتجدد جزءاً من بنية التخطيط للمدن.[45] كانت تجربة الحضارة أمرا رائعا وهشا معا، فالمدينة تزدهر وتنتعش بسرعة دراماتيكية، ثم سرعان ما تنحدر وتزول بسرعة. عندما تصل مدينة إلى علوها، سرعان ما تفترس المدن المنافسة لها. كان هنالك حروبا، مذابح، ثورات، وتهجير. الدمار يعني أن الحضارة التي تم بناؤها بشقاء وتعب تحتاج إلى أن يعاد بناؤها وتأسيسها من جديد. كان هنالك خوف دائم من ارتداد الحياة إلى بربريتها القديمة. بمزيج من الإدراك والأمل، كانت اساطير الحضر تصور الصراع اللامتناهي بين النظام والفوضى.

لم يكن مفاجئا، أن ينظر البعض إلى الحضارة ككارثة. فالكتاب الإنجيليون رأوا أنها علامة على إنفصال الإنسان عن الله الذي حصل عقب طرد آدم من جنة عدن. تبين أن حياة التمدن عنيفة دائماً وتستلزم القتل والإستغلال. كان قابيل، المجرم الأول،[46] أول رجل يبني مدينة، وقد ابتكرت سلالته لاحقا الفن المُدُني، فكان جُبال Jubal "أول من لعب الفيثارة والمزامير".[47] وقد ترك زِغورت ziggurat العظيم أو برج بابل

إنطباعاً عميقا وغير مُرضٍ عند الإسرائيليين القدامي، حيث بدا نموذجا لجحود وتبجح الوثني، الذي تحركه نزعة تعظيم الذات فقط. لذلك كان بنو إسرائيل يسمونه برج بابل، لغرض معاقبة بنَّائيه، فالله، بحسب العهد القديم: "لعثم لسان كل شعوب الأرض، ومن هناك بعثرهم على وجه جميع كل المعمورة".[48]

بيد أن شعوب بلاد ما بين النهرين، رأت في المدينة مكاناً للإتصال بالآلهة. كانت المدينة تقريبا إعادة خلق للجنة المفقودة، حيث استبدل زِغورت العظيم (برج بابل) الجبل الذي كان في وسط الأرض، والذي مكن البشر الأوائل من التسلق إلى عالم الآلهة. عاشت الآلهة في المدن، جنبا إلى جنب مع الرجال والنساء في معابد كانت نسخا مطابقة لقصورهم في العالم الإلهي. كانت كل مدينة في العالم القديم، مدينة مقدسة. وكما كان أجدادهم الأوائل يرون في الصيد والزراعة أعمالا مقدسة وعبادية، كذلك رأى ساكنو المدن الأوائل أن حفظ تقاليدهم وتراثهم هو بالأساس أمر إلهي. ففي بلاد ما بين النهرين، عَلَّمَت الآلهةُ الرجالَ كيف يبنون برجهم العالي، وكان إنكي، إله الحكمة، مدبر عمال الجِلد، والحدادين، والحلاقين، والبنائين، والخزفيين، وعمال الري، والأطباء، والموسيقيين، والكُتَّاب.[49] عَلَّمَ الناس حينها، أنهم ببنائهم المدن، يشرعون في إطلاق مشروع عجيب سيغير مجرى الحياة البشرية إلى الأبد. كان بناؤهم للمدن أمراً فائقاً نقلهم إلى وضع جديد ومختلف عن أي شيء عرفوه من قبل. لقد شاركوا قدرة الآلهة الإبداعية، في

استعادة النظام للعالم الفوضوي.

كان الإسرائيليون مخطئين، حين تخيلوا أن شعب بلاد ما بين النهرين مذنب بالإلحاد. لقد عرف هؤلاء، أن الحياة الإنسانية- حتي في مدنها المهيبة- يعتريها الخلل وزائلة، بالمقارنة مع عالم الآلهة، التي ما تزال تشكل الاساس الحاضن لحياتهم اليومية. فمدنهم مجرد ظل باهت لجنة ديلمن Dilmun، التي يسكنها الآلهة فقط وبعض البشر الإستثنائيين. كانوا واعين بشكل حاد أن الحضارة، مثل الحياة البشرية تماماً، هشة وغير دائمة. فمصر، البلد المحصور، كانت الجبال تعزلها وتحميها من القوى العدوانية، وكان فيضان النيل الدائم يهبها خصوبتها، الأمر الذي ولد ثقة أكبر بالقدرات البشرية. هذا على خلاف بلاد ما بين النهرين، حيث كان فيضان دجلة والفرات غير متوقع ومدمرا في أكثر الحالات، كما كان سيل المياه الجارف يحول التراب إلى مستنقعات وحلية، والرياح الملتهبة تحوله إلى رماد. هذا بالإضافة إلى وجود تهديد دائم بالغزو. فكانت الحياة نتيجة لذلك أقل أماناً بكثير مما هي في مصر. لذلك، يبدو ان حفظ الحضارة يتطلب جهدا بطوليا ضد قوة الطبيعة القاسية والمدمرة. هذه المخاوف، كانت جلية في أساطير الفيضانات عند شعوب بلاد ما بين النهرين، حيث كانت أنهار بلاد الرافدين ميالة إلى تحويل اتجاهها بشكل مفاجئ بسبب غياب السدود والموانع الطبيعية. فكان الفيضان متكررا وكارثيا في أغلب الأحيان. لم يكن الفيضان بركة، كما في مصر، بل أصبح رمزاً للتفكك والتحلل

السياسي والإجتماعي.

كلما دخل الناس في عصر تاريخي جديد، كانوا يُغيِّرُون أفكارهم عن الإنسانية والألوهة. ففي تلك الحضارات المبكرة، بدأ الرجال والنساء يصبحون مثلنا نحن الحديثين، وعلى وعي أفضل من ذي قبل بأنهم أسياد مصيرهم. فلم يعودوا بالتالي، يرون الآلهة بالطريقة نفسها التي كانت لأجدادهم. ومع تصدر الأعمال البشرية واجهة الحدث ومركزه، بدت الآلهة أكثر نأياً وبُعداً، ولم تعد حقائقها واضحة بذاتها بل أصبحت فقط خارج المتناول. وقد رأت الميثولوجيا الحضرية الجديدة في الفيضان، علامة على أزمة العلاقة بين الألوهة والإنسان. ففي أتراهاسِس *Atrahasis*، وهي أطول القصائد عن فيضانات بلاد الرافدين، أصبحت الآلهة فيها، مثل البشر، مخططي وبنائي مدن، والقليل منهم يتوقف عن العمل، وقد استنفذتهم أعمال حفر قنوات الري التي لا تنتهي، لتجعل المناطق النائية معمورة ومسكونة. لهذا السبب خلقت الإلـٰهة الأم بشراً لتنجز هذه الأعمال الوضيعة بالنيابة عنها، غير أن عدد البشر أصبح كبيرا ومزعجا، مما حدا بـ إنليل Enlil، إله الريح، الذي ظل يقظاً بسبب صخبهم، أن يقرر إغراق العالم كوسيلة قاسية للتحكم بعدد السكان .إلا أن إنكي Enki أراد إنقاذ أتراهاسسAtrahasis[50] رجل الحكمة الفائقة في مدينة شوروباك Shuruppak، حيث كان بينهما صداقة خاصة. فطلب إنكي من أتراحاسيس أن يصنع مركبا، وأرشده إلى التقنية التي تمنع تسرب المياه إلى داخل المركب، وبسبب هذا

التدخل الإلهي، كان أتراهاسيس مثل نوح، قادرا على إنقاذ أسرته وإنقاذ بذور جميع الأشياء الحية. إلا أنه وبعد غور المياه، ذعرت الآلهة من التدمير والخراب الذي سببه الفيضان. في أسطورة ما بين النهرين، كان الفيضان العلامة الأولى على انسحاب الآلهة من العالم. أخذ إنكي أتراهاسيس وزوجه إلى ديلمن Dilmun، فكانا البشر الوحيدين الذين يتمتعان بالخلود والألفة القديمة مع الآلهة. المهم في قصة الأسطورة، أنها تثمن التقنية الموحى بها من الآلهة لإنقاذ الجنس البشري من الإنقراض. أصبحت الحضارة والثقافة، كما هو الحال في عصرنا الحديث، نقطة ارتكاز الأسطورة والتطلع نحو المستقبل.

هذا لا يعني أن شعوب بلاد ما بين النهرين كانت مثلنا بالكامل. إذ وعلى الرغم من تراجع الآلهة، فإن درجة حضور عناصر الغيب والتعالي ظلت عالية في وعي الناس أثناء ممارستهم لأعمالهم اليومية. وقد اعتبرت كل مدينة عاصمة أرضية لأحد الآلهة، وكل مواطن إبتداءاً بالحاكم وانتهاءاً بالعامل الوضيع، هو خادم ونصير لإنلل وإنكي وإنانا.[51] ظل الناس ملتزمين بالفلسفة القديمة، التي ترى أن كل ما على الأرض نسخة مطابقة لحقيقة سماوية. وكما حكمت المدن هيئة مسنين، فقد آمنت شعوب ما بين النهرين بوجود هيئة قيادة إلهية تحكم جميع الآلهة. كذلك اعتقدوا، أنه وكما أن تقاليدهم الحضرية تطورت من خلال جماعات زراعية صغيرة كانت منسجمة مع إيقاع الطبيعة، فإن الآلهة أيضاً مرت بتطور وتحول مماثل.

استمرت اسطورة الخلق في مقدمة الملحمة البابلية، والتي كانت تعرف من كلماتها الإفتتاحية بإنوما إلِش *Enuma Elish*. ويرجع تاريخ النصوص التي بين أيدينا عنها إلى النصف الأول من الألفية الثانية قبل الميلاد، إلا أن محتواها يحمل مواداً أقدم بكثير من هذا التاريخ.[52] يبدأ الشعر بتنسيب الآلهة، ويعرض كيف جاء الآلهة أنفسهم إلى الوجود. لم يكن هنالك عملية خلق من العدم، بل كان هنالك عملية تحول وتطور، انبثقت فيها الآلهة الأولى من المادة الجوهرية المقدسة، وهي مادة موحلة وغير محددة، وكان كل شيء ينقصه التحديد. اختلطت حينها المياه المالحة والمرة، ولم يكن حينها انفصال بين السماء والأرض والبحار. كانت الآلهة نفسها "بدون أسماء، وبلا طبيعة، وبلا مستقبل".[53] لم تكن الآلهة التي انبثقت من الطين منفصلة عن العناصر الأرضية. فكان أبسو Apsu نهر الماء الحلوة، وشايمت Tiamat البحر المالح، ومامو Mummu غيمة الضباب. بل كان بالإمكان ترجمة أسماء هذه الآلهة إلى كلمات: "الهاوية"، "الفراغ"، "حفرة لا قعر لها" (Bottomless Pit).

بقيت تلك الآلهة الأصلية بدون شكل وهامدة. ثم انبثق منها آلهة آخرى، أزواجا أزواجا. فكان كل زوج أكثر تحديدا من سابقه. ثم أخذ الكون المنظم يظهر إلى الوجود ما أن بدأت العناصر الإلهية تنفصل عن بعضها البعض. جاء أولا الغَرِين (ماء وتراب ممزوجان بعضهما ببعض)، ممثلا بِـ لامو Lahmu ولهامو Lahamu. ثم جاء أنشِر Ansher وكِشر Kishar (أفق السماء

والبحر)، وأخيرا جاءت الإله السماء، وأنو Anu، وإي Ea، والأرض. تنسيبات الآلهة هذه، لم تكن مجرد تخمينات ما ورائية حول تطور الألوهة، بل هي أيضاً تأملات فرضتها منطقة ما بين النهرين، التي هي منطقة طوبية تشكلت من رواسب طينية. من جديد، نجد أن الألوهة سمة من سمات العالم البشري، وأن الآلهة لا تنفصل عن هيئة الأرض. ففي أريدو Eridu، التي هي واحدة من أقدم مدن ما بين النهرين، كانت البحيرة السبخة التي جعلت الإستيطان حولها ممكنا ومحيطاً لمركز العبادة، تسمى أبسو Apsu (إسم أحد الآلهة). كذلك، استعرضت الأسطورة إنفصال الآلهة التدريجي عن الطبيعة، وهو الإنفصال الذي اختبره ساكنوا المدينة أنفسهم.

كانت الآلهة الجديدة أكثر نشاطاً وحيوية وقادرة على التغلب على ذويها. فنجد أبسو يغرق في الأرض، ويبني إي وأنو قلعتهما الخاصة مكتملة بمعابد وقاعات عامة، فوق جثته المقلوبة. كان بناء المدن علامة دائمة على لحظات الذروة الكونية لشعوب ما بين النهرين. في حين أن تيامات ما تزال خطراً متربصاً، وخلقت جماعة من الوحوش الجبارة تثأر لأبسو. فكان الإله الوحيد القادر على هزيمتها في معركة خاطفة هو مردك، الإبن العظيم للإله إي. فبعد صراع مرير، يقف مردك فوق جثة تيامت، ثم يقسمها إلى جزئين على شكل محار ضخم، ليخلق منهما السماء والأرض التي سيسكنها البشر، ثم يُشرِّع قوانين ويؤسس مجلساً إلهياً لتقوية النظام الكوني الجدي. في النهاية، وبعد فكرة خطرت له، خلق

مردك الإنسان الأول عبر مزج دم أحد الآلهة المنهزمين بيد ممتلئة من تراب، مما يدل على أن الآلهة ليست قابعة ومعزولة في عالمها الماورائي، بل إن البشر وعالمهم الطبيعي، هما أيضاً مصنوعان من نفس المادة الإلهية.

تعالج الأسطورة عملية التغير البشرية، التي هي نفس عملية تطور الآلهة. هكذا أساطير، تعكس عملية تطور المدينة-الدولة في بلاد ما بين النهرين، التي أدارت ظهرها للمجتمع الزراعي (الذي نعتبره الآن متخلفاً وبليداً)، وترسخت بفضل قوتها العسكرية. بعد انتصاره، يجد مردك بابل. حيث نجد في قلب المدينة برج إساَجيلا Isagila، وهو نسخة مطابقة لقبر مردك في العالم الإلهي. كانت الأبراج تعلو فوق كل المباني لأنها "رمز السماء اللانهائية"، ولتصبح بيت الله الأرضي. وقد سميت المدينة "باب -إيلاني" *Bab-ilani* (بوابة الآلهة)، أي المكان الذي تدخل الآلهة منه عالم البشر. في إساجيلا Esagila، تجلس الآلهة لتحتفل طقوسها المقدسة التي "يتلقى منها الكون تكوينه وبناءه، وقد جعل العالم المخبَّأ بسيطا، ثم حددت الآلهة موقعه في الكون."[54] يمكن للمدينة إذاً أن تحل محل محور ماندي axis mundi القديم، الذي هو صلة الوصل بين السماء والأرض في العصر الذهبي.

وقد احتفظ الإنجيل (العهد القديم) بأسطورة الخلق التي تظهر أن يهوا، مثلما فعلت تيامَت في أسطورة بابل، جلب العالم إلى الوجود بعد أن قتل وحش البحر.[55] هذا النوع من القصص

حول نشأة الكون كان مشهورا بين شعوب الشرق الأوسط. هكذا اساطير، كانت تعبيراً عن اعتقادهم بأن الحضارة صراع دائم، وجهد هائل للتغلب على التحديات الجمة لإيقاف الإنزلاق إلى بربرية عديمة الشكل. كانت قصيدة إينوما إلِش *Enuma Elish* تُرنَّم في اليوم الرابع من إحتفالات السنة الجديدة. وكأي قصة أسطورية، كانت تشرح حادثا غامضاً وممتنعاً على الوصف حصل في الزمن المقدس من "كل حين". لم يكن حدث الخلق مثل أي حدث تاريخي اعتيادي، يحصل وينتهي. فخلق العالم عملية مستمرة، ومعركة الألوهة ضد الفوضى ما تزال مستمرة، ويحتاج البشر إلى تدفق الطاقة الإلهية التي تبعد الفوضى والكوارث.

في العالم القديم، ظل الرمز مرتبطاً بمصدره غير المرئي. لأن التشابه يتضمن نوعا من الهوية، ويجعل الحقيقة غير المرئية حاضرة. لذلك، كان الطقس الرمزي في احتفالات السنة الجديدة عبارة عن دراما مسرحية، التي هي مثل أي حدث مسرحي آخر، تزيل حواجز الزمان والمكان وتخطف الحضور والمشاركين بعيدا عن موطنهم الدنيوي. كانت بمثابة لعبة من تقديس التظاهر-بالإعتقاد، يشعر معها المتعبدون، أنه تم رميهم داخل عالم الألوهة اللازمني الذي يشكل الأساس الخلفي لحياتهم اليومية. كان يتم قتل كبش محرقة لإلغاء السنة الواهنة والمُحتضِرة، وكانت المعركة الهزلية تعيد تمثيل صراع مردك ضد تيامت، كما كانت احتفالات سَتِرناليا saturnalia تعيد إنتاج قوى الفوضى، بإذلال الحاكم وتنصيب ملك كرنفالي بديلا عنه. كانت طقوس

الفناء تستعيد حالة الإنهيار النفسي الذي اختبره رجل الشامان أثناء تكريسه، كما كان الرجوع الحذر والمتناسق يستعيد الروحانية القديمة، التي ترمز إلى الرجوع إلى الفوضى الأولى التي لا يستغنى عنها في أية عملية خلق جديد.[56]

وكما نعلم، فإن قصة الخلق، لم تقدم أبداً معلومات واقعية عن أصول الحياة. ففي العالم القديم، كانت قصة نشأة الكون، تتلى عادة مع إعداد لوترجي، وأثناء فترة الذروة التي يشعر فيها الناس الحاجة إلى الإتحاد بالطاقة الإلهية، والتي كانت تحصل حين كانوا ينظرون في المجهول القادم مع بداية السنة الجديدة، أو تحصل في الأعراس ومناسبات التتويج. لم يكن غرض الأسطورة تقديم المعلومات، بل كان بالأساس علاجياً. فالناس ينصتون إلى تلاوة اسطورة التكوين، عندما تواجههم كوارث وشيكة، أو يريدون إنهاء صراع ما، أو يريدون شفاء مريض. والفكرة من وراء الأسطورة، هي قرع باب القوة اللازمنية الرافعة للوجود الإنساني. لقد كان الغرض من الأسطورة مع ما يرافقها من طقوس، هو التذكير بأن الأشياء ستصير إلى الأسوأ قبل أن تتحسن، وأن الإستمرار والإبداع يتطلبان كفاحا مُكرَّساً.

تشير قصص تكوين أخرى، إلى أن عملية الخلق الحقيقية تطلبت تضحية بالنفس. ففي ميثولوجيا الفيدا الهندية، كان الخلق نتيجة لفعل تضحية ذاتية، حين عرض بيورشا Purusha، العملاق الكوني، نفسه على الألهة، ليُضَحُّوا به ويُقَطِّعُوا أوصاله، ويتشكل من جسده: الكون والطبقات الإجتماعية التي يتألف منها

المجتمع، وكانوا نتيجة لذلك مقدسين وكاملين. وفي الصين، هنالك أسطورة مشهورة حول عملاق آخر، يدعى بان جو Pan Gu، الذي عمل 36000 عاما من أجل أن يجلب عالما حيوياً إلى الوجود، ثم يموت بعد ذلك بسبب الإرهاق من جهده. الفكرة نفسها أيضاً موجودة في اساطير المعارك الشرق أوسطية، حيث نجد أن تيامت و موت و لويثيان، لم يكونوا أشراراً، بل كانوا ببساطة يقومون بدورهم الكوني. وكان عليهم، لكي ينبثق كونٌ منظم من قلب الفوضى، أن يموتوا وأن يتحملوا تقطيع أوصالهم. لأن البقاء وتحضر المجتمع، يعتمدان على موت ودمار الآخرين، ولا يمكن لأي من الرجال أو الآلهة أن يكون خلاقاً ما لم يكن جاهزاً لتقديم نفسه قرباناً.

حتى ذلك الوقت، تمحورت الميثولوجيا بالكامل تقريبا، حول إنجازات الآلهة - أو إنجازات آباء الزمن الأول - الأولية وكفاحها. إلا أن الأساطير الحضرية بدأت تنغمس في التاريخ البشري. وبسبب الإعتماد على العبقرية البشرية، بدأ الناس يرون أنفسهم قوى مستقلة. فبدأت نشاطاتهم الخاصة تتصدر الإهتمام، وأخذت الآلهة، وبنحو متزايد، تتوارى أكثر فأكثر. وبدأ الشعراء يعيدون تأويل القصص القديمة، حيث يمكن تلمس هذا في القصيدة البابلية المعروفة بملحمة غلغامش *The Epic of Gilgamesh*. وغلغامش على الأرجح شخصية تاريخية، عاشت في العام 2600 ق.م. تقريبا، وهو مُدرج في السجلات الملك الخامس لـ يورِك Uruk في جنوب بلاد ما بين النهرين، وصار

لاحقا بطلا شعبيا. تسرد الأساطير الأولى مغامراته مع خادمه إنكيدو Enkidu، التي تتضمن بطولات تقليدية ومنجزات شامانية، كالقتال مع الوحوش، وزيارة العالم الأرضي، ومحادثة الآلهة. ثم اتخذت هذه القصص لاحقاً معنى أعمق، وأصبحت تمثل السعي الإنساني لتحصيل الحياة الأبدية. إلا أنه، في النسخة الأخيرة لهذه القصيدة، والتي كُتِبت في العام 1300 ق.م.، صارت الأسطورة تستعرض محدودية ومعنى الإرث الإنساني.

في بداية القصيدة، يظهر غلغامش رجلا ضل طريقه. كان هنالك عاصفة في قلبه، وبدأ في ترهيب شعبه الذي ناشد الآلهة أن تثأر له. غير أن الآلهة، وبشكل ملفت، لم تعد راغبة في التدخل المباشر بشؤون البشر، وبدأت، بدلا من ذلك، تعمل عبر وسطاء. ولكي يكون أمام غلغامش شيئ يصارعه، خلقت الأساطير له إنكيدو، وهو رجل بدائي وشرس ويركض هائجاً في أرجاء البلاد. كان جسمه مغطى بصوف خشن، وكان اشعث الشعر، عاريا، يأكل العشب، ويشرب ماء المستنقعات. إنكيدو هو "الإنسان كما كان في البداية"،[57] يشعر بالألفة تجاه الحيوانات أكثر منه تجاه البشر. ولترويض إنكيدو، أرسل غلغامش له مومساً إسمها شَمهَت Shamhat لتعلمه السلوك المتحضر. وبعد ست ليال مع شمهات، يجد إنكيدو أن وثاقه مع الطبيعة وعالم الحيوان قد انكسر. لقد أصبح متمدنا، الأمر الذي يعني حصول خسارة كما يعني حصول ربح. أصبح أنكيدو "مُنتقصا"، ولكنه أصبح "عميقا". بل صار بحيازته الحكمة

ودماثة الخلق، "كالإله،[58] وقادراً على التمتع بنمط حياة أوروك المتطورة، التي هي أرقى وأسمى بكثير من الحالة الطبيعية للبشرية، التي تبدو لنا إلهية.

أصبح غلغامش وإنكيدو أصدقاء، وانطلقا في مغامراتهما. وفي الطريق إلتقيا بـ عشتار Ishtar. كان الزواج في الميثولوجيا السابقة على هذه الأسطورة، يمثل التنوير الأقصى والمطلب الأهم للبطل. غير أن غلغامش في تلك القصة، يرفض طلب عشتار الزواج منه. وفي هذا نقد قوي ومباشر للميثولوجيا التقليدية، التي لم يعد بإمكانها مخاطبة الرجل والمرأة الحضريين، ولم يعد غلغامش يرى أن الحضارة مشروع إلهي. أما عشتار الإلٰهة فكانت مدمرة الحضارات، كانت مثل الجلد الرطب الذي يبلل حامله، والحذاء الذي يضغط قدمي منتعله، والباب الذي لا يمكنه صد الريح[59]. لم يبق أحدٌ ممن صاحبتهم عشتار، ودمرت كل عشاقها.[60] أصبح بإمكان البشر العيش بدون علاقة مدمرة مع آلهة غير مسؤولة كهذه. أعلن غلغامش الرجل المتحضر، إستقلاله عن الآلهة، وأصبح من الأفضل لكل من الآلهة والبشر أن يذهب كلٌ في طريق منفصلة عن الآخر.

تنتقم عشتار لنفسها، بأن يمرض إنكيدو ويموت، ويذهل غلغامش من الصدمة، ويتملكه الحزن لإدراكه أنه سيموت أيضاً. ويتذكر أن الشخص الذي نجا من الفيضان، إسمه في القصيدة أتنابيشتِم utnapishtim، قد مُنح حياة أبدية، ينطلق ليزوره في ديلمن Dilmun. غير أن البشر المتحضرين لا يمكنهم العودة إلى

حالة الروحانية البدائية، وأن البحث عن عالم الآلهة يعتبر نكوصا حضارياً. عندها، يهيم غلغامش في السهول، طليق الذقن، مرسل الشعر، ومغطى بجلد أسد فقط. وكما فعل رجل الشامان، سلك طريق الشمس عبر أراض غير مسكونة، حاملا رؤية عن العالم السفلي، وساعيا وراء "معرفة سرية عن الآلهة"[61]. وعند وصوله أخيرا إلى ديلمن، يشرح له أتنابشتم بأن الآلهة لن تنقض قوانين الطبيعة أو تعطلها لصالح أناس مختارين لديها. لم تعد الأساطير القديمة مصدر إلهام للتطلع والطموح البشريين، لقد قلبت الزيارة إلى ديلمن المقاربة الأسطورية القديمة رأسا على عقب.[62] في أترابازِس *Atrabasis*، كانت قصة الفيضان تروى من وجهة نظر الآلهة، ولكن أتنابشتم هنا، يخبر عن تجاربه الخاصة، وعن الصعوبات العملية التي واجهها لإطلاق قاربه، وعن ردود فعله تجاه الدمار الكبير الذي أحدثه الفيضان. حين ركزت الأساطير القديمة على العالم القدسي ولم تكن مهتمة بالأحداث والشخصيات الزمانية، كان غلغامش التاريخي في قصة الفيضان، يزور أتنابشتم الأسطوري. مما يعني، أن التاريخ الإنساني بدأ يفرض نفسه على الميثولوجيا في نفس الوقت الذي بدأت فيه الآلهة تتراجع من العالم البشري.[63]

كان من المفترض أن يتلقى تعليمات قيّمة من الآلهة، إلا أنه تلقى بدلا من ذلك، درسا مؤلماً عن محدودية الإنسان. لذلك تراه يعود إلى الحضارة، ويستحم، ويرمي جلد الأسد عن جسده، ويمشط شعره، ويلبس ثيابا نظيفة. ومنذ ذلك الوقت،

انشغل ببناء جدران أوراك، ونحت منحوتات فنية متحضرة. عرف أنه شخصيا سيموت، إلا أن خلوده سيكون هذه المرة في منحوتاته ونصبه، وفي اختراعه للكتابة على وجه الخصوص، التي ستخلد إنجازاته في الأجيال اللاحقة.[64] أصبح أتنابشتم حكيما حين تكلم مع الآلهة، أما غلغامش فقد تعلم أن يُنتِجَ تجربته من دون مساعدة إلهية. لقد خسر بعض التخيلات الوهمية ولكنه اكتسب "حكمة كاملة"، عاد "مرهقا ولكنه ارتاح في النهاية".[65] لقد ابتعد عن الرؤية الأسطورية القديمة، ولكنه وجد أن التاريخ مصدر تعويض كبير.

جرى في اليونان أيضاً، إعادة تقييم مماثلة للأفكار الأسطورية القديمة. فأسطورة أدونيس، مثلا، أعادت صياغة قصة دوموزي وعشتار، وحولتها إلى اسطورة سياسية.[66] فأدونيس شخصية عاجزة عن اكتساب الجنسية اليونانية، وصياد فاشل، وأخفق في طقوس التكريس التي تحول المراهقين اليونان إلى مواطنين، والتي تتركز غالبا على مِحن الصيد. وحين استُرِق من قبل إلهتين، لم يستقل أبدا عن عالم النساء. كان المواطنون اليونان يتحدون في المدينة من خلال العائلة، ولأن أدونيس مولود من سفاح القربى، وهو فعل يحرِّف مُثُل العائلة، فقد فشل في إيجاد عائلة له. كان سلوكه اليومي غير المسؤول أقرب إلى الإستبداد، الذي هو شكل من أشكال الحكم يضع الملك فوق القانون، وقد نبذه الأثينيون. كان الإحتفال بعيد أدونيس، حيث يُطلق النساء عويلهن ونواحهن، شيئا مكروهاً ومنفراً في المجتمع

الذكوري. كان باختصار، فعلا معاقا من الوجهة السياسية. لعل اسطورة أدونيس ساعدت الأثينيين على تعريف أنفسهم بشخصنة كل ما يعارض قيم الوقار الذكورية في المدينة.

غيرت حياة المدينة الميثولوجيا. وبدأت الآلهة تظهر غريبة وبعيدة، وتزايد إخفاق الطقوس والقصص القديمة في تقريب الرجال والنساء من عالم الألوهة، الذي كان في يوم من الأيام في غاية القرب. صار الناس أكثر تحررا من أوهام الرؤى الأسطورية التي أنعشت وألهمت أجدادهم. مع التقدم في انتظام المدن، ومع كفاءة نظم الأمن، وجلب اللصوص وقطاع الطرق إلى العدالة، إزدادت لامبالاة الآلهة ولم يعد يعنيها مآزق البشر ومشاكلهم. أصبح هنالك فراغ روحي. في بعض الأجزاء من العالم المتحضر، ذبلت الروحانية القديمة ولم يظهر شيئ جديد يحل مكانها. بيد أن هذا الإضطراب، قاد البشرية إلى تحول آخر كبير.



الفصل الخامس

العصر المحوري
(٨٠٠ ق.م. - ٢٠٠ ق.م.)

مع حلول القرن الثامن قبل الميلاد، أصبح الإضطراب أكثر انتشاراً. وفي أقاليم أربعة مختلفة من العالم، كان هنالك سلسلة أنبياء وحكماء ذوي تأثير كبير، شرعوا في البحث عن حلٍ جديد. وقد سمَّى الفيلسوف الألماني كارل جاسبر Karl Jaspers هذه الفترة بالعصر المحوري، لأنها برهنت على دورها المحوري في التطور الروحي للإنسانية، واستمرت الرؤى المُنْتَجَة فيها مصدر تنشئة للرجال والنساء حتى يومنا هذا.[67] كانت هذه الفترة، علامة البداية الأولى للدين الذي نعرفه نحن. كذلك، أصبح وعي الناس بطبيعتهم الذاتية، وأوضاعهم الخاصة ومقيداتهم، واضحا وجليا بنحو غير مسبوق.

إنبثقت في هذه الفترة، نظم دينية وفلسفية جديدة: الكونفوشوسية والطاوية في الصين، البوذية والهندوسية في الهند، عبادة الإله الواحد في الشرق الأوسط، والعقلانية اليونانية في أوروبا. وقد اقترنت التقاليد الجديدة والمحورية برجال على شاكلة أنبياء اليهود في القرن الثامن والسابع قبل الميلادي، وحكماء الأوبنشاد *Upanishads*، وبوذا (563- 483 ق.م.) في

الهند، وكونفوشيوس (551- 479 ق.م.) ومؤلف الداو دي جينغ *Dao De Jing* في الصين،[68] وتراجديي اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد مثل سقراط (469- 399 ق.م.) وأفلاطون (427- 347 ق.م.) وأرسطو (384- 322 ق.م.).

بقي الكثير من العصر المحوري غامضا لدينا. ولا نعرف لماذا اقتصر التحول المذكور على الصينيين والهنود واليونان واليهود، ولماذا لم يحصل تطور مماثل في بلاد الرافدين ومصر؟ من المؤكد، أن المناطق المحورية خضعت لفورات سياسية واجتماعية واقتصادية، تمثلت بحروب، وتهجير، ومذابح، وتهديم للمدن. كذلك، فقد ظهر سوق اقتصادي جديد، انتقلت معه السلطة من أيدي الكهنة والملوك إلى أيدي التجار، الأمر الذي قوض النظام الكهنوتي القديم. فالأديان الجديدة لم تظهر في الصحارى النائية أو الجبال المعزولة، بل تبلورت في بيئة رأسمالية ذات موارد مالية ضخمة. غير أن تلك الفورة، لا تقدم لوحدها تفسيرا كاملا حول ظهور الثورة المحورية، التي تركت أثراً لا يمحى في الطريقة التي ينظر البشر فيها إلى أنفسهم، وإلى بعضهم البعض، وإلى العالم من حولهم.

هنالك مكونات جوهرية مشتركة بين جميع الحركات المحورية، وهي أن جميعها يركز بشكل قوي على المعاناة الإنسانية التي تبين أنها عنصر لازم في الوجود الإنساني، وأن جميعها يؤكد على الحاجة إلى دين روحاني لا يعتمد بقوة على الممارسة أو على الطقوس الخارجية. كان لدى جميع هذه

الحركات، إهتمام وعناية جديدان بالوعي والقيم والفردية. فمن الآن وصاعداً، لم يعد يكفي ممارسة الشعائر التقليدية بحذافيرها، بل على المتعبدين معاملة المخلوقات الأخرى باحترام. لذلك، نجد أن جميع حكماء تلك الفترة قد انقلبوا على العنف الحاصل في زمانهم، وبشروا بأخلاق المودة والعدالة، وعلَّموا تلاميذهم البحث عن الحقيقة من داخل نفوسهم وأن لا يعتمدوا على تعاليم الكهنة والخبراء الدينيين، وانه لا يمكن الوثوق بأي شيء بالكامل، بل كل شيء محل للمساءلة، وأن تخضع القيم القديمة، التي كانت تؤخذ كمسلمات، لتفحص نقدي. كانت الميثولوجيا بالطبع، أحد المجالات التي احتاجت إلى إعادة تقييم.

تنوعت مواقف الحركات المحورية تجاه الأساطير القديمة، حيث كان البعض منها عدائيا تجاه أي منحى أسطوري، وكان الآخر في موضع اللا-موقف. إلا أن جميعها أعطت تفسيراً باطنياً وأخلاقياً لهذه الأخلاق. مع تقدم الحياة المدنية، لم تعد الأسطورة تؤخذ كمسلمة نهائية، بل استمر الناس في نقدها وتفحصها، إلا أنهم، وحين كانوا يواجهون غموض النفس البشرية، تراهم وبنحو غريزي يعودون إلى الاساطير القديمة. ربما كان من الضروري إعادة صياغة قصص الأساطير، بيد أن الشعور بضرورتها ما يزال قائماً. وحين يلغى أحد المحققين الإصلاحيين أسطورة ما، نجد الأسطورة نفسها تزحف إلى حياة الناس بمظهر وشكل مختلفين. حتى في النظم الدينية الأكثر تطوراً وتعقيدا،

وجد الناس عدم إمكانية العيش والإستمرار بدون الميثولوجيا.

تحصيل الناس للخبرة مع المقدس، لم تعد بنفس السهولة التي كان يحصلها أجدادهم. فالآلهة أخذت تنسحب من وعي قاطني المدن الأوائل. وعلى الرغم من استمرار توق الناس، في البلاد المحورية، إلى التسامي والتعالي، إلا أن المقدس بدا الآن بعيدا ونائيا، بل وحتى غريبا. أصبح هنالك فاصل بين الآلهة والبشر الفانين، ولم يعودوا يتشاركون في نفس الطبيعة، ولم يعد بالإمكان الإعتقاد بأن الآلهة والبشر جاؤا من نفس الطبيعة الإلهية. فنجد مثلاً، أن الأساطير العبرية الأولى، تخيلت إلهاً يمكن أن يأكل ويتحادث مع إبراهيم كصديق،[69] إلا أنه، وحين اتصل أنبياء العصر المحوري مع نفس الإله، كانت التجربة معه بمثابة صدمة مرعبة، عرضّت حياتهم للخطر، أو تركت فيهم الشعور بالذهول والإنتهاك[70]. أصبح الوصول إلى الحقيقة العليا الآن من الصعوبات المستحيلة. ففي الهند، شعر البوذيون أن دخولهم في سلام النرفانا المقدس لا يكون إلا بحملة مؤلمة وشاقة ضد وعيهم الطبيعي، من خلال ممارسات اليوغا التي لا تتوفر للرجل العادي، في حين مارس الـ جاينز jains زهدا قاسيا ومؤذيا، حيث أن بعضهم جوّع نفسه حتى الموت. أما في الصين، فقد آمن كونفوشيوس أن الداو، أي الحقيقة المطلقة، أصبح غريبا عن عالم البشر، ويفضّل عدم التكلم عنه.[71] تنوع التجارب الدينية بهذه الطريقة، يعني أنه لم يعد بإمكان الميثولوجيا أن تتحدث بسهولة عن الكائنات الآلهية، كما كانت

تتحدث عنه بالطريقة التجسيدية القديمة.

لم ندرج الصين في بحثنا، بسبب أنهم وبحكم ثقافتهم العالية، لم يُخبروا قصصا عن الآلهة. فلم يكن هنالك قصص عن الصراع مع الآلهة، أو آلهة فانية، أو زواج بين الآلهة. كما لم يكن هنالك هياكل مكرسة للآلهة، أو قصص عن خلق الكون وبدايته، ولا حتى آلهة بشر. لم يكن للمدن آلهة شفيعة، ولا طقوس أو شعائر حضرية. هذا لا يعني أن المجتمع الصيني لم تكن لديه اساطير داعمة له، بل كانت عبادة الأجداد ذات أهمية جذرية، وتشير إلى عالم موجود قبل عالم البشر. كما أن الطقوس الممارسة حين رحيل أقاربهم، زودت الصينيين بنموذج عن النظام الإجتماعي المثالي، الذي فُهم كعائلة منتظمة بمباديء الآداب واللياقات. كان يسكن الأنهار والنجوم والرياح والمحاصيل، أرواح عاشت بتناغم مع بعضها البعض في طاعة الإله السماء، دي Di (الذي عرف لاحقا ب شاين Tian: الجنة). وعلى خلاف آلهة السماء الآخرين، فإن الإله الصيني الأعلى لم يذبل أو يتلاشَ، بل أصبح أكثر حضورا في زمن مملكة الشانغ (التي امتدت من القرن الثامن عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد). حيث كان الملك يستمد مشروعيته من فكرة أنه الوحيد القادر على الإتصال بالدي\شاين. وبحسب مبادئ الفلسفة القديمة، فإن الملك كان بمثابة النسخة الأرضية المطابقة له - وهي أسطورة بقيت موجودة في التقاليد الصينية حتى ثورة 1911. كانت الحكومة الأرضية مطابقة لنظام السماء، فالوزراء يساعدون الملك

مثلما كانت آلهة العناصر تساعد شاين في إدارة الكون.

يبدو أن الصينيين بدأوا يتحسسون طريقهم نحو الروح المحورية قبل الثقافات الأخرى. ففي العام 1126 ق.م.، قام أناس من وادي نهر واي، المعروف في زماننا بمقاطعة شنسي، بالإنقلاب على حكم سلالة شانغ، وأسسوا دولة ال زاو Zhou، حيث ادعت عائلة زاو أن آخر ملوك شانغ كان فاسدا، وأن شاين، وبحكم ألمه من معاناة الناس، نقل تفويض الحكم إلى عائلة زاو - وهي أسطورة صورت شاين بمواصفات أخلاقية. احتفلت عائلة زاو بنظام السماء بإقامة مراسيم طقوسية مطولة ومصحوبة بموسيقى قوية وجميلة. تجربة اللوترجية هذه، كانت بمثابة تكريس للتناغم الإجتماعي الذي كان بذاته إلهيا. حيث كان على جميع المشاركين، الأحياء منهم والأموات، التناغم مع هذه المراسيم. وكان لكل من الكائنات - أرواحا كانت، أم أجدادا وبشرا - فضاؤها الخاص، وعلى كل فرد أن يُخضع رغباته ومُنفِّرَاته وميوله الخاصة لتلك الشعائر الدينية، التي جعلت من نظام الكون المثالي حقيقة واقعية في عالم البشر المضطرب. المهم هو الشعائر وليس الأفراد الفاعلين، وهو ما يُشعر الأفراد أنهم غارقون في العالم المقدس، الذي هو أساس الكون وأساس نظامهم السياسي، ومستهلكون فيه.

بيد أن ملكية سلالة زاو في زمن كونفوشيوس، أخذت تنحط وأخذ النظام القديم يتداعى وينهار. وقد عزا كونفوشيوس هذه الفوضى إلى إهمال الطقوس ونبذ معايير السلوك المقبولة (*li*)

التي علمت الناس كيف يتصرف بعضهم تجاه البعض الآخر. رمى الناس اللياقات والآداب جانبا، وأخذوا يسعون فقط وراء إهتماماتهم الشخصية والأنانية. ورغم أن بعض الأساطير القديمة، قد أشارت إلى أن الإبداع لا يقوم إلا بالتضحية الذاتية، إلا أن الحكماء المحوريين، تطرقوا بالتفصيل إلى المضمون الأخلاقي لهذا التصور، حيث كان على الفرد الراغب في رفع مستوى حياته الإنسانية إلى الكمال، أن يمارس التضحية الذاتية يومياً.(72) دمج كونفوشيوس القيم والأخلاق الصينية القديمة بفضيلة التعاطف المحورية، فروَّجَ لمثال الـ رِن ren (الإنسانوية) الذي تفرض على الناس أن يحبوا الآخرين.(73) كان كونفوشيوس أول من شرع القاعدة الذهبية: "لا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن يفعله الآخرون بك".(74) تطلبت الروح المحورية تركيزاً باطنيا ووعيا عميقا بالذات وتحليلاً مفصلاً لعيوبها. فالتصرف الصحيح تجاه الآخرين لا يكون إلا بمعالجة وتفحص حاجاتك ودوافعك وميولك، والإحترام اللائق للآخرين يتطلب عملية سبو sbu، أي "التعامل كما تعامل نفسك".(75)

بيد أن كونفوشيوس أدرك أن هذا لا يتحقق بمجرد الممارسة أو بتأمل عقلي فقط. فالتعالي على الأنانية لا يتحقق إلا بكيمياء الطقوس والموسيقى، التي وكسائر الفنون العظيمة، تنقل البشر إلى مستوى أعمق من المستوى الذهني.(76) ومع ذلك، فإن حضور الطقوس والمشاركة فيها ليس كافيا، بل لا بد من فهم الروح والغاية من تلك الطقوس، التي هي الدعوة إلى سلوك

الإيثار (rang) تجاه الآخرين للتغلب على الكبرياء والحقد والحسد.[77] فحين ينحني العابدون أمام المشاركين الآخرين، ويخضعون لمتطلبات الطقوس، ويسمحون للآخرين بأن يتولوا زمام الأمور عند الحاجة لذلك، فإنهم في كل هذا، مع بالموسيقى الناعمة المرافقة لذلك، يكونوا قد تعلموا كيفية التصرف تجاه من يتعاملون معهم في حياتهم اليومية. تطلع كونفوشيوس إلى مثال نموذجي من الماضي، غير أنه لم يكن للصينيين قصصا عن الآلهة، بل كانوا يقدسون ويمجدون أبطال الثراث، الذين كانوا في الواقع شخصيات أسطورية أعتُقِدَ أنها تاريخية. فكان أبطال كونفوشيوس الخاصين، اثنين من الملوك الحكماء الخمسة في الزمان البعيد. الأول كان ياو، الذي لم يُعلِّم فقط الصينيين الإستعمال المناسب للطقوس والموسيقى، بل ومارس فضيلة الإيثار. ولأنه لم يرى أياً من أولاده مؤهلاً للحكم، اختار المزارع الفاضل شان ليكون خلفاً له. وأثناء حكمه، أظهر شون أيضاً تجردا استثنائيا من أنانيته، عندما استمر في حب أبيه وأخوته، وعاملهم بتبجيل واحترام عاليين، رغم أنهم حاولوا قتله. طبعاً بالنسبة لكونفوشيوس، كانت الطقوس إذا فهمت بشكل صحيح، أكثر أهمية من تلك القصص الأسطورية.

أيضاً، حصل تطور مماثل في الفيدا الهندية، حيث أدت طقوس الأضحيات إلى أفول الآلهة التي كانت تقدم تلك الأضحيات قرابين لها. تراجعت الآلهة تدريجيا من الوعي الديني، حين ابتكر المصلحون الدينيون، في القرن الثامن قبل

الميلاد، نظاما لوترجيا جديداً يضع الفرد المنعزل في مركز المشهد. منذ ذلك الحين، لم يعد الرجال يعولون على الآلهة في تحصيل العون، بل كان عليهم ابتكار عالم منظم لأنفسهم داخل حلبة طقوسهم. وقد تم اختبار القوة المتولدة من هذه الإحتفالات المعروفة بالبرهمان، كشيء غامر ومحيط، جعلهم يعتقدون أنه الحقيقة القصوى القابعة وراء الآلهة والحافظة لوجود وكينونة العالم. يمكن للإحتفال الديني، حتى في أيامنا هذه، أن ينتج النشوة الروحية التي يطلق عليها الهنود اسم أنيامانا *anyamanas*، أي "العقل الآخر" المختلف بالكامل عن العقل الطبيعي والأرضي. تشديد الهنود والصينيين على الطقوس الدينية، يذكرنا من جديد بأن الاسطورة لا يمكن تصورها بمعزل عنها. فالأسطورة والممارسات الشعائرية شريكان متساويان، وكلاهما يساعد على ترويج حس القداسة، ويفعلان ذلك معا، على الرغم من احتلال الطقوس الموقع الأول في التأثير والأهمية.

أصر جميع حكماء العصر المحوري على وجود مكون ثالث. فلكي تفهم المعنى الحقيقي للأسطورة، عليك أن لا تكتفي بممارسة الشعائر التي تهب توترا عاطفيا، بل عليك التصرف بأسلوب أخلاقي مناسب. فإذا لم تكن حياتك اليومية مُوجهة من قِبل ما يسميه كونفوشيوس بال رن *ren*، رانغ *rang*، وسبو *sbu*، فإن اسطورة من قبيل ياو *Yao* أو شون *Shun* قد تبقى مجردة ومبهمة.

في الفيدا الهندية، كانت الأفعال الطقوسية تسمى الكرما

(أي المآثر). إلا أن بوذا، لم يكن لديه اهتمام بطقوس القرابين، فأعاد تعريف الكرما بأنها النوايا التي تُلهم أفعالنا الإعتيادية.(78) كانت دوافعنا هي الكرما الباطنية، كما أن نشاطاتنا الذهنية هي أهم بكثير من تقيدنا بالشعائر، وهي بذات أهمية الاعمال الخارجية. كان هذا نموذج الثورة في الفترة المحورية، التي عمَّقت وبطَّنت (جَوَّنَت) مفهوم كُلٍ من الفضيلة والأسطورة. أصبحت الأسطورة تتطلب ممارسة دائماً. وقد أظهر حكماء العصر المحوري بأن الاسطورة لا يمكن أن تظهر كامل خواصها ومميزاتها، ما لم تقد إلى ممارسة التعاطف العملي والعدل في الحياة اليومية.

كان لدى مؤلف كتاب داو دي جينغ *Dao De Jing*، المعروف تقليديا بـ لايوزي Laozi، رؤية سلبية عن الشعائر التقليدية. وعلى العكس من "لي" *li*، فقد اعتمد على تمرينات في التركيز تشبه مارسات اليوغا الهندية. اقتنع لاوزي بأن الحضارة كانت خطأً حرف الإنسانية عن الطريق القويم داو، وتطلع إلى العصر الذهبي أيام الحياة الزراعية البسيطة، التي عاش فيها الناس في قرى صغيرة وبدون تكنولوجيا أو فن أو ثقافة، وبدون حروب أيضاً.(79) وهو الزمن، الذي اعتقد الصينيون، أن نهايته كانت مع موت البطل القومي شن نونغ Shen Nong، الذي، ورغم الكلفة العالية التي تكلَّفها، فقد علَّم الناس علوم الزراعة. تذوق شن نونغ كل النباتات بنفسه ليعرف أيها صالح للأكل، حيث تسمم جراء ذلك سبعين مرة في اليوم. غير

أنه، في القرن الثالث قبل الميلاد، عندما كانت الممالك الكبيرة تبتلع الدول والجماعات الصغيرة في حروب مدمرة واحدة بعد الأخرى، تغيرت أسطورة شين نونغ. أصبح يعتبر بعدها حاكما مثالياً، حيث قيل أنه حكم امبراطورية لا-مركزية، وحرث حقوله جنبا إلى جنب مع افراد رعيته، وحكم بدون وزراء أو قوانين أو عقوبات. انسحبت حياة الرهبنة والتنسك من الحياة العامة لغرض إعادة إنتاج مثال الشين نونغ، وكتاب الداو دي جينغ، الموجَّه إلى حاكم ولاية أو دولة صغيرة، يعطي نصيحة مماثلة. من الأفضل الإنسحاب والبقاء منكفئاً وأن لا تفعل شيئا إلى أن تتخطى القوى العظمى ذاتها.

وكما كان معلمو العصر المحوري، فإن لايوزي لم يكن معنيا بمسائل البقاء العملية، بل بإيجاد مصدر للسلام الأعلى وسط التوتر الأرضي. كان يتوق إلى الحقيقة القصوى، الداو، التي هي وراء الآلهة، والأساس الذي لا يوصف للوجود كله. ومع أن الداو تتعالى على كل شيء نتصوره، إلا أننا إذا نحتنا تجردا باطنيا في داخلنا، وخرجنا من أنانيتنا وأطماعنا، وعشنا بسلوك تعاطفي، فسنكون في تناغم مع الداو، وبالتالي يحصل التحول المطلوب فينا. أي عندما نتخلى عن المطامح التي تمليها علينا قيم الحضارة، فسنكون في تناغم مع الطريقة التي يجب أن تكون عليها الأمور.[80] ومع ذلك، وكما كان لايوزي يستعين بالعصر الأسطوري الذهبي لشن نونغ في وصفه للحكم المثالي، كان يتوق أيضاً إلى الاساطير التقليدية (المحتمل استمرارها داخل

ثقافات مشهورة) لغرض استحضار الداو. فالداو هو مصدر الحياة، والجد الأعلى المثالي، والأم أيضاً. وحين كان أناس ما قبل التاريخ، يرون الأم العظيمة شرسة وعنيفة، كان لايوزي، في زمن الروح المحورية الجديدة، يعطي لهذه الأم صفات التعاطف والحنان، وأصبحت مقترنة مع نكران الذات ولا تنفصل حقيقتها عن الإبداع والخلق.[81] وحين كان رجال ونساء ما قبل التاريخ، يمثلون أدوار العودة إلى الرحم، بحفر قنوات سرية تحت الأرض، كان لايوزي يتخيل أن الحكيم أو الإنسان المثالي، يقوم بتلك العودة لغرض التطابق مع نظام الكون.

كان لايوزي وبوذا راغبين في استعمال الأساطير القديمة لمساعدة الناس في فهم الأفكار الجديدة. إعتقاد بوذا بأن تقديم القرابين ليس فقط بلا فائدة ولكنه قاس أيضاً، دفعه إلى انتقاد طقوس الفيدا، إلا أنه في نفس الوقت كان متسامحا مع الأساطير التقليدية. لم يعد بوذا يؤمن بأن للآلهة فعالية وتأثيراً، فكان قادرا على طرحها جانبا بهدوء وصمت، وشعر بعدم الحاجة إلى شن حملات إيديولوجية ضدها. غير أنه أعطى للآلهة دلالة رمزية جديدة. وفي بعض القصص عن حياته، بدا الإله برهما، الأله الأعلى، والإله مارا، ملك الموت، وكأنهما انعكاس لحالة بوذا الباطنية، وشخصنة لقواه الذهنية المتصارعة.[82]

لم يستطع أنبياء بني إسرائيل تحمل هذا السلوك المتساهل، وشعروا بأنهم مجبرون على محاربة الأساطير القديمة بشدة، بعد أن وجدوا أنها لا تتلاءم مع إصلاحاتهم المحورية. مع العلم أن

الإسرائيليين استمتعوا، لقرون عدة، حياة الشرق الأقصى الطقوسية والأسطورية، فعبدوا أشيرا وبعل وعشتار إلى جانب إلههم. غير أن يهوا Yahweh الذي بدا الآن بعيدا جداً، فقد أجرى أنبياؤه مثل أشعيا وجرمايا وحزقيل مراجعة جذرية لأساطير الآلهة القديمة المؤنسنة. ولأن القصص القديمة تبدو الآن بدون معنى وفارغة، فقد أعلنو أنها خاطئة، وأعلنوا أن إلههم يهوا الذي برهن بتعاليه على تفاهة تلك القصص القديمة، أنه الإله الوحيد. ثم أخذوا بحشد الحجج ضد الأديان القديمة، حيث صَوَّرُوا أن يهوا نفسه بأنه قام بحملة محارب لقيادة مجلس الآلهة، ومع إهمال رفاقه الآلهة للفضائل المحورية مثل العدالة والشفقة، صار لزاماً أن تزاح وتموت كما يموت الرجال الفانون.(83) كما قام الأبطال التقليديون، مثل جاشوا، وداوود والملك Josiah بقمع الثقافات الوثنية المحلية،(84) وتسخيف تماثيل بعل ومردك لأنها من صنع البشر، ومؤلفة من الذهب والفضة بالكامل، قام حِرَفيٌ ما بتركيبها في بضع ساعات.(85)

عرضنا هذا هو بالطبع، عرض اختزالي لوثنية الشرق الأوسط. إلا أن تاريخ الأديان، يظهر أنه ما أن تتوقف الأسطورة عن خلق اهتمام في الناس بالتعالي، حتى تصبح مكروهة ومنبوذة. في البداية، كان التوحيد، الذي هو الإيمان بإله واحد، عبارة عن صراع. فحين كان الكثير من الإسرائيليين يشعرون بأنهم ما زالوا مفتونين بالأساطير القديمة وكان عليهم محاربة هذا الإنجذاب، كانوا يشعرون حينها، بأنهم يُسلخون بشكل مؤلم من

عالم جيرانهم الأسطوري، وأنهم بدأوا يغتربون عنهم. نلمس هذه المعاناة في محنة جرمايا، الذي اختبر إلهه بطريقة مؤلمة هزت كل أضلاعه، وفي مهمة حزقيل الغريبة، التي صارت مثال التقطع الجذري، حيث أمر الله حزقيل أن يأكل قذارته، وحُرِم من البكاء على امرأته الميتة، وكان مصاباً برجفة مخيفة لا يمكنه التحكم بها. شعر انبياء العصر المحوري بأنهم يأخذون شعبهم إلى العالم المجهول، حيث لا يمكنهم الركون إلى شيء، ولا التعامل مع الأمور بطريقة طبيعية. بيد أن هذا الكرب، مهد الطريق ليقين مطمئن، وللدين الذي نسميه الآن اليهودية.

الغريب هنا، أن ذلك التوكيد الذاتي، جاء بعد مأساة كبيرة. ففي العام 586، قام ملك بابل نبوخذنصر باحتلال مدينة القدس ودمر معبد يهوا، ثم هجَّر العديد من الإسرائيليين إلى بابل. هناك، تعرف العديد منهم على أبراج بابل، وغنى النظام اللوترجي في المدن، ومعبد إساجِلا Esagila الضخم. كانت هذه هي اللحظة التي فقدت الوثنية جاذبيتها، حيث يمكن تلمس الروح الجديدة في الفصل الأول من سفر التكوين، والذي لعله كُتب من أحد أعضاء ما يُسمى بمدرسة المشيخية، ويمكن قراءته كجدل متزن وهادئ ضد قصص نشأة الكون العدائية القديمة. بهدوء، ونثر منظم، بدت اسطورة الخلق الجديدة تزدري قصة نشأة الكون البابلية. بخلاف مردك، لم يكن على إله إسرائيل أن يقاتل معارك ضارية لخلق العالم، بل كان يُخرج الأشياء إلى الوجود بلا جهد يذكر، بعبارة كُن البسيطة. لم تعد الشمس

والقمر والنجوم والسماء والأرض، آلهة في حد ذاتها، وليست معادية ليهوا، بل كانت خاضعة له، وقد خُلِقَت لدواع عملية خالصة. كما أن البحر ليس تيامات، ولكنه مخلوق لله ويفعل ما يأمره. بذلك كانت عملية الخلق التي قام بها يهوا متفوقة للغاية على أفعال مردك، في أنها لم تعد بحاجة للتكرار أو التجديد. حين كان آلهة البابليين منغمسين في معارك دائمة ضد قوى الفوضى، وكانوا بحاجة إلى طقوس احتفالات السنة الجديدة لتجديد طاقتهم، كان يهوا ببساطة يرتاح في اليوم السابع، لأنه أنجز عمله بالكامل.

ومع ذلك، لم يمانع بنو إسرائيل فين استعمال الميثولوجيا الشرق أوسطية القديمة، عندما وجدوا أنها تناسبهم. ففي سفر الخروج تم تصوير عبور بحر القصب بأسلوب أسطوري بالكامل.[86] فالإنغماس في الماء كان يستعمل تقليديا كطقس للعبور، كذلك كان هنالك - في الاساطير القديمة - آلهة أخرون ممن شقوا البحر نصفين في خلقهم للعالم. غير أن الذي ظهر إلى الوجود في أسطورة الخروج لم يكن الكون بل البشر. وقد فصَّل النبي المسمى إسحاق الثاني، والذي كان ناشطا في بابل في منتصف القرن السادس، عقيدة التوحيد بشكل واضح وجلي. لم يعد هنالك صخب وحدة في عملية الخلق. فمع عدم شكه بأن يهوا هو الإله الوحيد، فقد زالت العدوانية فيها. غير أنه استدعى اساطير الخلق القديمة التي تصور يهوا وهو يحارب وحوش البحر ليخرج العالم إلى الوجود، مثلما فعل أي إله شرق أوسطي

أخر. مساويا في ذلك، بين نصر الآلهة القديم على البحر الأولي وبين شق يهوا للبحر في زمن الخروج. أصبح بإمكان بني إسرائيل توقع إظهار مشابه للقوة الإلهية في زمانهم، بسبب أن الله أصبح على وشك أن يقلب حالة منفاهم ويعيدهم إلى موطنهم. ضم مؤلف ملحمة غلغامش البابلية التاريخ القديم والأسطورة إلى بعضهم البعض، في حين ذهب إسحاق الثاني إلى أبعد من ذلك، حيث وصل أفعال الله القديمة بالأحداث الجارية.(87)

في اليونان، تم إطلاق العصر المحوري من خلال اللوغوس (العقل) ـ الذي يعمل الآن بمستوى ذهني مختلف عن الأسطورة. حيث تتطلب الأسطورة مشاركة عاطفية أو نوعاً من محاكاة طقوسية ليكون لها معنى ما، في حين يحاول اللوغوس تأسيس الحقيقة بأسلوب استدلال متأن يستند فقط إلى اسلوب النقد الفكري. في إحدى مستعمرات اليونان: أيونيا، التي هي الآن تركيا، حاول أول فيزيائي أن يجد أساسا عقليا للأساطير القديمة حول نشأة الكون. غير أن هذا المسعى العلمي كان ما يزال يتحرك من داخل الإطار الأسطوري القديم. بطريقة ما كان هذا استرجاعاً واستذكاراً لأسطورة إينوما إليش، التي رأت أن العالم يتطور من بعض المواد الأولية، وليس بسبب فعل إلهي، بل وفق قوانين الكون الطبيعية. فبالنسبة لأنكسميدندرس (611-547 ق.م.)، كان المبدأ الأول الذي دعاه اللانهائي، مغايرا لأي شيء اختبره البشر. وقد انبثقت العناصر المألوفة في عالمنا من هذا المبدأ وفق عملية تعاقب الحرارة والبرودة. أما انكسيمانس (مات

500 ق. م.) فقد آمن بأن المبدأ الأول كان الهواء المطلق، في حين كان بالنسبة لهرقليطس النار. التقديرات المبكرة تلك للمبدأ الأول، كانت خيالية مثلما كانت الأساطير القديمة، بسبب غياب السبيل لإثباتها أو توكيدها. وقد أدرك الشاعر أكسينوفان (540-500) هذه المسألة، مركزاً على محدودية الفكر البشري، حاول كتابة لاهوت عقلاني، يستبعد فيه كل الأساطير التي تجسم الآلهة، ويقترح ألوهة تتناسب وتتطابق مع علم الفوسيكو *phusiko*، الذي يعني: المطلق، اللا-شخصي، الأخلاقي والساكن، العليم والكامل القدرة.

قليل من الناس كان مهتما بالفيزياء الأيونية، التي كانت التجلي الأول للروح المحورية في اليونان. وقبل أن يأخذ الشغف بالفلسفة جذورا قوية في القرن الرابع، طور الأثينيون نوعا جديدا من الطقوس، الذي هو التراجيديا، التي أعادت تمثيل أدوار الأساطير القديمة على هيئة احتفالات دينية، مع إخضاعها هذه المرة للوعي النقدي،حيث قام أسكيلوس Aeschylus (525-456 ق.م.) وسوفوسكلوس Sophocolus (496-405 ق.م.) ويورابدس Euripedes (480 -486 ق.م.) بمحاكمة جميع الآلهة أمام هيئة محكمة. الفارق بين الأسطورة والترجيديا، هو أن الأسطورة لا تسائل نفسها، لأنها تتطلب درجة من التماهي الذاتي. في حين أن التراجيديا، تضع مسافة بينها وبين الأسطورة التقليدية، وتُسائل بعض أهم القيم اليونانية الاساسية، وعما إذا كانت الآلهة حقيقة مُنصفة وعادلة؟ وما هي قيمة البطولة اليونانية أو

الديمقراطية؟ جاءت التراجيديا إلى الواجهة في الفترة الإنتقالية، أي الفترة التي بدأت فيها الأساطير القديمة تخسر لمستها وصِلتها بالواقع السياسي الجديد للدولة-المدينة. ومع أن البطل أديبس Oedipus ظل ملتزما بِمُثُل الأساطير التقليدية، إلا أنها مع ذلك لم تساعده على حل معضلته. فالبطل الاسطوري، كان في السابق يحارب ليحقق النصر أو ليصل إلى حل ما على الأقل، في حين أن حلولا كهذه لم تعد متوفرة للبطل التراجيدي الواقع في شباك الألم والحيرة، وعليه منذ الآن اتخاذ خيارات واعية وتحمل تبعاتها.

رغم ما أحدثته التراجيديا من تحطيم للتقاليد والأصنام القديمة، إلا أن توزيع الأدوار فيها كان يتم وفق الطقوس التقليدية. وكأي طقس ديني، فقد مثلت التراجيديا حركة من الحزن المنعزل إلى المشاركة الجماعية. ولكن ولأول مرة، كان للحياة الباطنية دور وفعالية في الحياة الدينية للمدينة، وكانت الدراما تؤدى أثناء مهرجان ديونيسيوس، إله التحول، ويمكن أن تكون قد لعبت دورا مهما في عملية تكريس الشبان الأثينيين مواطنين كاملين. ومثل أية عملية تكريس، كانت التراجيديا ترغم الحضور على مواجهة ما لا يمكن التكلم عنه، وعلى اختبار أقصى حالات الإنفعال. كانت قريبة لعقيدة التضحية، لأنها تقود إلى الكاثارسِس katharsis، التي هي حالة تطهر داخلي للقلب والعقل ناتجة عن اقتحام احاسيس الشفقة والرعب بعنف للقلب والذهن. هذا الشكل الجديد من التضحية كان مُشَرباً بمشاعر

التعاطف السائدة في العصر المحوري، بسبب أن الحضور قد تعلموا أن يشعروا بألام الشخص الآخر وكأنها ألامهم، موسعين بالتالي مدى مشاركتهم الوجدانية وإنسانيتهم.

لم يكن أفلاطون محباً للتراجيديا، لأنها بالغت في الجانب العاطفي، ورأى أنها تغذي الجانب اللاعقلي من الروح، وأن البشر لا يستطيعون تحقيق فعاليتهم التامة إلا عبر اللوغوس.[88] فماثل بين الأساطير وخرافات "الزوجات المُسِنَّات". بنظره، الخطاب العقلي والمنطقي فقط هو الذي يحقق فهما حقيقيا.[89] إلا أنه، يمكن اعتبار نظرية أفلاطون عن المثل الخالدة، بأنها نسخة فلسفية للأسطورة القديمة عن الآلهة الأصليين، التي تشكل الأشياء الأرضية ظلالا لها. ومع ذلك، فقد أصر أفلاطون، إن مثل الحب والجمال والعدالة والخير، لا يمكن تصورها أو إدراكها عبر رؤى الاسطورة أو الطقس، بل من خلال قوى التعليل المنطقي للعقل فقط. أما أرسطو، فكان على وفاق مع أفلاطون من هذه الزاوية، حيث وجد أن الأساطير القديمة أمور مبهمة: "لأنها تجعل من العلل الأولى آلهة أو متولدة من آلهة، وترى أن كل من يتذوق رحيق وطعام الآلهة يكون فانياً. . .أما بخصوص الدلالة الواقعية لهكذا تأثيرات، فإن تعابير هذه الاساطير بعيدة عن مجال استيعابنا". يبدو أن أرسطو كان يقرأ الأسطورة كأنها نص فلسفي. فمن وجهة نظر علمية، لا معنى لهذه الأساطير، وعلى الباحث الجدي عن الحقيقة أن "يلجأ إلى الذين يعللون ويفسرون الأشياء بطريق البرهان والتجربة".[90]

ويبدو أن دراسة الفلسفة أحدثت شرخا بين الأسطورة واللوغوس، اللذين بقيا حتى زمن أرسطو في حالة تكامل.

إلا أن كل هذا ليس نهاية القصة. إذ رغم عدم تحمل أفلاطون للأسطورة، فقد كان لها دور كبير في الكشف عن مُثُلِه القابعة وراء مجال اللغة الفلسفية. إذ لا يمكن التحدث عن الخير بعبارات اللوغوس، لأنه ليس كائناً ما بل هو مصدر الكينونة والمعرفة معا. كما أن هنالك قضايا أخرى، كأصل الكون أو منشأ الآلهة، التي يبدو أنها عرضة للتفسير الأعمى وممتلئة بجوانب لاعقلية لا يمكن التعبير عنها بحجج واستدلالات متناسقة. وهكذا، عندما يعجز الخطاب الفلسفي عن التعبير عن موضوع النظر والبحث، فلا بد أن نقنع بالتعبير عنها بخرافة مقبولة.[91] لذلك نجد أفلاطون يستعين بأسطورة التناسخ حين كان يكتب عن الروح.[92] وكذلك أرسطو، الذي اعتبر من جهة أن بعض الأساطير حول الآلهة هي عبثية بالمطلق، نجده من جهة أخرى يصف القول: "كل المواد الأولى كانت آلهة" بأنه قول: "إلهي حقيقي".[93]

إذاً، كان هنالك تناقض في الفكر الغربي. فاللوغوس اليوناني بدا أنه يعارض الميثولوجيا، في حين استمر الفلاسفة في إستعمال الأسطورة، إما لأنهم رأوها المؤسس والمبشر الأول بالفكر العقلاني، أو لأنهم اعتبرو عدم إمكان استغناء الخطاب الديني عنها. اللافت هنا، أنه وبغض النظر عن الإنجاز الهائل للعقلانية اليونانية في فترة العصر المحوري، فإن الأديان اليونانية

لم تتأثر بالتحولات الدينية التي حصلت في العصر المحوري. حيث استمر اليونان بتقديم القرابين للآلهة، وكان لهم دورٌ في أسرار إلسِنيان Eleusinian، واستمروا في الإحتفال بمناسباتهم الدينية حتى القرن السادس الميلادي، حين قُمِعت تلك الديانة الوثنية من قبل الأمبراطور جوستينوس، واستبدلت بعقيدة المسيحية.



الفصل السادس

فترة ما بعد العصر المحوري
(٢٠٠ ق.م. حتى ١٥٠٠ م.)

تركز مسحنا التاريخي حتى الآن على الثورات الروحية والإجتماعية التي أرغمت البشر على تعديل ميثالوجيتهم. إلا أنه وبعد العصر المحوري، لم تحصل تغيرات تذكر بالمقارنة معه لما يزيد على ألف عام. ففي الشؤون الدينية، ما زلنا نعتمد على رؤى وتعاليم حكماء وفلاسفة الفترة المحورية، كما أن وضع الأسطورة بقي كما هو حتى القرن السادس عشر ميلادي. في فترات التاريخ اللاحقة، سنركز على الغرب، لا بسبب أن فترة التحول الجديدة بدأت هناك فقط، بل أيضاً، بسبب أن الشعب الغربي بدأ يجد الميثولوجيا أمراً مُشكلاً. وسنركز أيضاً على الأديان الغربية، بسبب أن الأديان التوحيدية الثلاث تدَّعِي، ولو جزئيا، أنها أديان مستندة إلى وقائع وأحداث تاريخية لا أسطورية. في حين خلت التقاليد الدينية الأخرى في العالم، من الموقف المناقض والمعارض للأسطورة. ففي الهندوسية، اعتبر التاريخ شيئاً عابراً ووهمياً، ولا يستحق بالتالي الإهتمام الروحي، حيث يشعر الهندوس بالأمان في عالم الأسطورة القديم. أما البوذية، فهي ديانة ذات عمق سيكولوجي، وتجد في

الميثولوجيا، كتعبير أولي عن النفس، أمراً ملائماً لها بالكامل. أما في الكونفوشوسية، فالطقوس كانت دائماً أكثر أهمية من القصص الأسطورية. في حين أن اليهود والمسيحيين والمسلمين، يؤمنون بأن إلههم ناشط وحاضر في التاريخ، ويمكن اختباره من خلال أحداث واقعية في العالم. وللإجابة على السؤال حول حصول هذه الأحداث فعلا في التاريخ أم أنها مجرد أساطير، وبسبب الموقف غير المتساهل مع الأسطورة الذي تسرب إلى العقل الغربي من خلال أفلاطون وأرسطو، حاول أصحاب الديانات التوحيدية الثلاث بشكل متكرر، مطابقة معتقداتهم الدينية مع المعايير العقلية للفلسفة، غير أن الكثير منهم استنتج لاحقاً، أن هذا كان خطأً.

لدى اليهودية موقف محير ومربك تجاه أساطير الشعوب الأخرى من غير اليهود. حيث بدت عدوانية تجاه اساطير الأمم الأخرى، ومع ذلك كانت تستعين بقصص تلك الأساطير للتعبير عن الرؤية اليهودية. بالإضافة إلى ذلك، فقد استمرت اليهودية في أن تكون مصدر إلهامٍ لاساطير أخرى، واحدة منها كانت المسيحية. فالمسيح وحواريوه الأوائل كانوا يهوداً وذوي نشأة يهودية عميقة، وكذا الأمر بالنسبة للقديس بولس، الذي يمكن القول أنه حول المسيح إلى شخصية أسطورية. ولا يقصد من هذا الكلام التحقير، فالمسيح شخصية تاريخية حقيقية، وأعدم في العام 30 من قِبَل الرومان، واعتقد حواريوه الأوائل أن المسيح، بطريقة ما، قام من بين الأموات. إلا أنه ما لم يتم أسطرة حادثة

تارخية ما، فلن تعود مصدر إلهام ديني. فالأسطورة، كما نتذكر، هي حادثة تاريخية حصلت مرة واحدة، ولكن حدوثها سيستمر في كل وقت. أي يتطلب حدوثها الدائم، نقلها من حالة حدوثها الأولى، بتحريرها من حدوثها الزمني الخاص، وإحيائها في حياة العابدين المعاصرين، وبدون ذلك ستبقى حادثة فريدة لا تتكر، أو حدثاً تاريخياً غريباً لا يمكنه ملامسة حياة الآخرين. نحن لا نعلم ماذا حصل بالفعل عندما هرب شعب إسرائيل من مصر وعبروا البحر (بحر القصب)، فالقصة كتبت على شكل أسطورة. إلا أن شعائر عيد الفصح عندهم، جعلت قصة العبور هذه مركز حياة اليهود الروحية، حيث يتربى كل واحد منهم على أن يرى نفسه من ذرية الذين هربوا من مصر. إنها اسطورة لا يمكن فهمها بالكامل من دون طقوس تحولية تقربها إلى قلوب الأجيال من المتعبدين. الأسطورة تتطلب دائماً ممارسة. فأسطورة الخروج تفرض على اليهود أن يعمقوا تقديرهم للحرية كقيمة مقدسة، وأن يرفضوا الإستعباد أو أن يستضعفوا غيرهم. بالممارسة الطقوسية والتفاعل الأخلاقي، لم تعد القصة مجرد حدث تحقق في الماضي البعيد، بل أصبحت حقيقة حية.

يمكن القول، أن القديس بولس فعل الشيء ذاته مع المسيح، حيث لم يكن كثير الإهتمام بتعاليم المسيح، التي نادرا ما كان يستشهد بها، ولا مهتما بتفاصيل حياة المسيح التاريخية. ففي رسالة له إلى الكورنثائيين: "حتى ولو عرفنا المسيح بدمه ولحمه ذات مرة، فلن يكون كما نعرفه الآن".[94] ما كان مهماً

هو "سر موته وقيامته" (وكلمة "سر" Mystery لها جذور لغوية مشتركة مع كلمة "أسطورة" *Mythos* اليونانية). حوَّل بولس المسيح إلى بطل اسطوري وأبدي، وأنه يموت ويبعث من جديد لأجل حياة جديدة، وأن الله مجده ورفعه، بعد صلبه، إلى أعلى عليين،[95] وكل من يُعمَّد (وهو التحول التقليدي الذي يتم بالغمس في الماء) يتم إدخاله في موت المسيح ويشاركه حياته الجديدة.[96] لم يعد المسيح مجرد شخصية تاريخية، بل أصبح حقيقة روحية في حياة المسيحيين، تتمثل في ممارسة الطقوس والإلتزام الأخلاقي بالعيش كما عاش المسيح حياة خالية من حب الذات.[97] لم يعد المسيحيون يعرفون المسيح بجسده، بل يتعرفون عليه عن طريق أشخاص آخرين، وبدراسة النص المقدس، وفي الإفخارستيا،[98] لم يكن يقينهم بأن هذه الأسطورة صحيحة وحقيقية، نابعا من معرفتهم بالدليل التاريخي، بل هو نتاج تجربة التحول Transformation التي عاشوها واختبروها. وهكذا، أصبح موت المسيح وقيامته أسطورة، لأنها حصلت في زمن محدد للمسيح، ثم صارت تحصل في كل الأزمنة.

في نهاية العصر المحوري، كانت المسيحية إعادة صياغة لعقيدة الإيمان بإله واحد، وكان الإسلام أيضاً كذلك. فالمسلمون يعتبرون النبي محمد (750- 632 م.) وريث أنبياء التوراة ووارث المسيح. ولم يكن لدى القرآن، وهو الكتاب الذي أنزل على العرب، أية مشكلة مع الاسطورة. فكل مقطع من مقاطعه يسمى

أية، أي مَثل أو حكاية، وكل قصص الأنبياء مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح هي آيات، "حكايات، تشبيهات"، لأننا لا نستطيع التكلم عن أي شيء إلهي إلا بالإشارات والرموز. كما أن الكلمة العربية "قرآن" تعني "تلاوة"، فلا يمكن فهم القرآن والتعرف على معانيه بشكل منفرد، مثل سائر الكتب الدنيوية أو الأرضية الأخرى، بل لا بد من تلاوته داخل حلقات المساجد، ولن يكشف عن نفسه بالكامل، ما لم يلتزم المسلمون بمبادئه وتعاليمه.

بسبب البعد الأسطوري في الديانات التاريخية، استمر اليهود والمسيحيون والمسلمون، في استعمال الميثولوجيا لشرح رؤاهم ولمواجهة أزماتهم، وكان جميع متصوفيهم يلجأوون إلى الأسطورة. فكلٌ من كلمتي تصوف mysticism وغامض mystery مرتبط بالكلمة اليونانية التي تعني "أن تغمض العين أو الفم". فكلا الكلمتين يحيل إلى التجارب الغامضة والعصية على الوصف، بسبب أنها وراء مجال اللغة، وترتبط بالباطن بدلا من العالم الخارجي. يأخذ التصوف رحلة إلى أعماق النفس عن طريق التركيز المنضبط الذي تطور وتبلور في كل التقاليد الدينية، وأصبح بالتالي النسخة الجديدة عن مسعي البطل الأسطوري. ولأن الأسطورة تظهر معالم الأبعاد المخفية، كان من الطبيعي أن يصف المتصوفة تجاربهم من خلالها، التي قد تبدو للوهلة الأولى مضرة بنظام تقاليدهم الدينية.

نرى ذلك واضحا بشكل خاص في الكابالا، الذي هو

التقليد الصوفي لليهود. حيث رأينا سابقاً كيف كان كُتاب التوراة عدوانيين تجاه الأسطورة البابلية والسومرية. إلا أن الكاباليين بالمقابل، تصوروا عملية تطور الآلوهة بطريقة لا تختلف عن التطور الإرتقائي للآلهة المبين في قصيدة إينوما إليش *Enuma Elish*، حيث انبثق من الألوهة الغامضة والمجهولة، التي يسميها المتصوفة إنسوف En 'Sof' (بدون نهاية)، عشرة آلهة سِفايرات *sefirot* معدودة. مثلت الإنبثاقات العشرة تلك، عملية خروج إنسوف En Sof من عزلته الموحشة ليجعل نفسه معروفا للبشر.[99] وتمثل كل سفايرا *sefirah* مرحلة في هذا الظهور والإنكشاف، ولديها إسمها الرمزي الخاص بها، حيث يكون سرَّ الألوهة في كل منها، أقرب وأسهل منالا للعقل البشري المحدود. كلٌ منها هي كلمة الله، والوسيلة التي خلق الله بها العالم. أما السفايرا الأخير فقد سمي بالشِكهنا Shekhinah، أي التجلي الإلهي لله على الأرض. كان الشِكهنا يُتصور غالبا إمرأة، أي الجانب الأنثوي لله، بل تخيل بعض الكاباليين وجود علاقة جنسية بين عنصري الأنوثة والذكورة في الألوهة، كتعبير عن الكمال والتكامل. حيث نجد في بعض تعابير الكاباليين، أن الشكهاينا تتوه في الأرض، كعروس ضائعة ومغتربة عن ألوهتها، في منفى خارج عالم الألوهة، وفي شوق للعودة إلى مصدرها الأصلي. مع التقيد الشديد بشريعة موسى، يمكن للكاباليين إنهاء إغتراب الشِكهاينا واستعادة العالم علاقَتَهُ بالله. المفارقة هنا، أنه في زمن التوراة، كان اليهود يكرهون المعتقدات المحلية عن

الإلاهات مثل أنات، التي جابت العالم كله باحثة عن زوجها الإله واحتفلت باتحادها الجنسي مع بعل. إلا أنه، وحين بحث اليهود عن طريقة للتعبير عن وعيهم الصوفي بالألوهة، أصبحت تلك الاسطورة الوثنية المُدانة، محل تصديق يهودي ضمني.

يبدو أنه لا يوجد في التوراة ما يسند أو يدعم مقولات الكابالا. ففي فترة ما قبل الحداثة، كان هنالك تسليم بعدم وجود نسخة رسمية وحصرية للأسطورة، وكان لدى الناس الحرية في صياغة اسطورة جديدة أو في إعادة تفسير جذري للقصص الأسطورية القديمة. لذلك، لم يقرأ الكاباليون التوراة بطريقة حَرفِيَّة، بل طوروا طريقة في التفسير، تجعل كل كلمة في التوراة تحيل إلى أحد السفايرات *sefirot*، وتجعل كل آية أو مقطع في الفصل الأول من سفر التكوين مثلا، تشير إلى حادثة لها ما يطابقها ويوازيها في حياة الله الخافية علينا. بل لم يتحرج الكاباليون في ابتكار اسطورة خلق جديدة لا تحمل وجه شبه لعملية الخلق في سفر التكوين، إذ بعد ترحيل اليهود من اسبانيا من قبل الملكين فريدناند وإيزابيلا في العام 1492، لم يعد بإمكان الكثير من اليهود التفاعل مع اسطورة الخلق الهادئة والمنظمة في سِفر التكوين، الأمر الذي دفع الكابالي إسحاق لوريا (1534- 1572) إلى ابتكار قصة خلق مختلفة بالكامل، ومليئة ببدايات خاطئة، وأغلاط إلهية، وإنفجارات، وتقلبات عنيفة وكوارث، كانت جميعها السبب في الخلل الحاصل في عملية الخلق، حيث كان كل شيء في المكان الخطأ. مع قطع

النظر عن صدمة اليهود من مناقضة قصة الخلق الجديدة للقصة التوراتية المعتمدة، فقد تحولت الكابالا اللوريانية إلى حركة شعبية يهودية، انعكست فيها تجربة اليهود المأساوية في القرن السادس عشر. اللافت أن لوريا لم يبتكر أسطورة الخلق وحدها، بل ابتكر معها طقوسا خاصة، وطرقاً للتأمل والإنضباط الخلقي، وهبت جميعها الحياة للأسطورة، وجعلت منها حقيقة روحية في حياة جميع يهود العالم.

هنالك أمثلة مشابهة لذلك أيضاً في التاريخ المسيحي والإسلامي. فحين سقطت الأمبراطورية الرومانية في الغرب، أعاد أوغسطين أسقف هيلانة (354-430) في شمال أفريقيا، تأويل وتفسير اسطورة آدم وحواء، وبلور أسطورة الخطيئة الأولى، التي تقرر، وبسبب عصيان آدم، حكم الله على السلالة البشرية باللعنة الأبدية (وهي أيضاً، فكرة جديدة لم ترتكز إلى أي مستند توراتي أو إنجيلي). تم تمرير الخطيئة المتوارثة -بحسب هذه الاسطورة- إلى جميع أحفاد آدم بطريق الفعل الجنسي، الملوث بالشهوة، والذي هو عبارة عن رغبة لاعقلية تحصر البهجة بالبشر لا بالله، وهذا هو التأثير الدائم للخطيئة الأولى. تجلي الشهوة كان أكثر وضوحاً في الفعل الجنسي، حين نسى الناس الله وأصبحوا ينكشفون لبعضهم البعض بدون حياء. التصور في هذه الأسطورة، عن الضرر والتصدع الذي أحدثته الأحاسيس الفوضوية والعواطف غير المنتظمة بالعقل، مشابه بطريقة مقلقة لمشهد روما المروع، بعدما كانت مصدر العقلانية

والقانون والنظام في الغرب، وهي تسقط وتتداعى بيد القبائل البربرية. يعتبر المسيحيون الغربيون غالبا، أن أسطورة الخطيئة الأولى ضرورية لإيمانهم، إلا أن اليونان الأرثودوكس في الدولة البزنطية، حيث لم تسقط روما، لم يعتنقوا هذه العقيدة، ولم يؤمنوا بأن موت المسيح كان لأجل تخليصنا من تأثيرات الخطيئة الأولى، بل أكدوا أن الله كان سيصبح بشرا، حتى ولو لم يقترف آدم الخطيئة الأولى.

أما في الإسلام، فقد طور الصوفيون أساطير عن الإنفصال والعودة إلى الله. حيث أن النبي محمد قام بمعراج روحي إلى العرش الإلهي من قبة الصخرة في القدس. وقد أصبحت هذه القصة نموذج الروحانية الإسلامية المثالية. ويستعمل الصوفيون هذه الرحلة الإعجازية الخارقة للترميز إلى تسليم النبي الكامل والمثالي لله. كذلك فقد طور المسلمون الشيعة رؤية ميثية حول الأئمة (القادة) الذين هم من سلالة النبي، حيث يجسد كل إمام العلم الإلهي. وعندما توقفت السلالة النبوية، قال الشيعة أن الإمام الثاني عشر، ذهب في غيبة وأنه سيعود يوما ما ليدشن عصر العدالة والسلام. حول هذه النقطة بالخصوص، كان التشيع حركة صوفية وعرفانية، ولن يكون لتلك الرؤية أي معنى إذا لم تُفهم في سياق خاص من التأمل والتأويل الروحيين. لم يقصد الشيعة بالطبع أن يتم تفسير رؤاهم بطريقة حرفية. فمسألة الإمامة، التي يبدو أنها تناقض الإسلام الرسمي (السني)، كانت طريقة رمزية في التعبير عن التحسس الصوفي لحضور المقدس الكامن

والمتوفر في عالم متأزم وخطير. لقد أصبح الإمام الغائب، بإزاحته من التاريخ العادي والطبيعي، متحررا من تقييدات الزمان والمكان. بل أصبح حضوره مع الغيبة، وهنا المفارقة، أكثر حيوية في حياة الشيعة من حضوره أثناء الفترة التي عاشها محتجزا في بيته بأمر من الخليفة العباسي. من هنا، فإن القصة الاسطورية، تعبر عن حِسَّنا بالمقدس كشيء غائب محير ومعذِّب، وكشيء في العالم وليس منه.

بسبب التمييز الذي أقامه واختبره اليونان، بين الاسطورة واللوغوس، لم يعد الكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين، مرتاحين من تضخم النزعة الأسطورية في تقاليدهم وتراثهم. وعندما تُرجِم أفلاطون وأرسطو إلى العربية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، حاول بعض المسلمين أن يجعل من ديانة القرآن ديانة لوغوس، فبلوروا براهين حول وجود الله، تحاكي طريقة برهان أرسطو على السبب الأول. أراد هؤلاء الفلاسفة، تطهير الإسلام مما يعتبرونه عناصر بدائية وأسطورية. كان هدفهم صعبا، لأن إله الفلاسفة لا يأخذ بعين الإعتبار الأمور الدنيوية، ولا يكشف نفسه في التاريخ، ولم يخلق العالم، وحتى أنه لا يعلم بوجود البشر. رغم كل هذا، فقد كان عمل الفلاسفة مثيراً للإهتمام، مثلما كان عمل اليهود في الأمبراطورية الإسلامية، الذين أطلقوا ورشة العقلنة في دين التوراة. ورغم ذلك، فقد بقيت الفلسفة نشاط جماعة قليلة من الناس، ومقتصرة على نخبة فكرية صغيرة. قد تكون العلة الأولى أكثر منطقية من إله التوراة

والقرآن، إلا أنه من الصعوبة بمكان إثارة وتحريك اهتمام الناس بإله لا يهتم بهم.

اللافت أن المسيحية اليونانية الأرثوذكسية قد احتقرت مشاريع العقلنة، على الرغم من معرفتهم العميقة بتقلديهم اليوناني، وعلمهم الجيد بأن اللوغوس والأسطورة لا يمكنهما، كما شرح أفلاطون، الإستدلال على وجود الله الخير. فدراسة اللاهوت بالنسبة لهم، ليست تمرينا عقلياً، واستعمال الدليل العقلي في بحث المقدس لا معنى له ولا مغزى، بل يشبه محاولة شرب الحساء بالشوكة. فاللاهوت عندهم، يكتسب صحته ومشروعيته فقط، إذا طُلب أثناء الصلاة واللوترجية. هذا الإستنتاج، وصل المسلمون واليهود إليه أيضاً. إذ مع حلول القرن الحادي عشر، قرر المسلمون وجوب اقتران الفلسفة بالروحانية والطقوس والصلاة، وأصبحت ديانة الصوفيين العرفانية والاسطورية شكل الإسلام النموذجي حتى نهاية القرن التاسع عشر. وعلى نحو مماثل، أدرك اليهود، اثناء معاناتهم من مآساة إبعادهم من أسبانيا، أن دين فلاسفتهم العقلاني لا يمكنه مساعدتهم. فالتجأوا إلى أساطير الكابالا، التي استقرت داخل وعيهم ولامست مصدر عذابهم وتوقهم الباطني. عاد جميع اليهود إلى الرؤى القديمة حول تكامل العقل والأسطورة. كان اللوغوس عندهم، أساسيا في علوم الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية، وهي بالمناسبة العلوم التي أبدع فيها العرب. بيد أنهم، وحين بحثوا عن المعنى الأقصى لحياتهم، وقرروا تلطيف يأسهم،

ورغبوا في اكتشاف المناطق الباطنية من شخصيتهم، دخلوا ميدان الأسطورة.

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، اكتشف المسيحيون في أوروبا الغربية أعمال أفلاطون وأرسطو التي كانت قد ضاعت منهم في فترة عصورهم المظلمة التي أعقبت سقوط الأمبراطورية الرومانية. ففي نفس اللحظة التي بدأ فيها اليهود والمسلمون يتراجعون عن جهودهم في عقلنة أساطيرهم، تمسك المسيحيون الغربيون بمشروع العقلنة هذا بحماس شديد يمنعهم هذه المرة من أن يفقدوه. حينها فقط، بدأ الغربيون يفقدون اتصالهم بمعنى الأسطورة، ولم يعد مفاجئا لنا الإدراك، بأن التحول الكبير التالي في تاريخ البشرية، الذي سيجعل تفكير الناس بالأسطورة أمرا صعبا، هو ذو أصول وجذور أوروبية-غربية.

الفصل السابع

التحول الغربي الكبير
(١٥٠٠-٢٠٠٠ م)

في القرن السادس عشر، وبمنهجية التجربة والخطأ، شرع شعب أوروبا مع ما أصبح يعرف لاحقا بالولايات المتحدة الأمريكية، في ابتكار حضارة لا سابقة لها في تاريخ العالم، أخذت تنتشر، في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، في الأجزاء الأخرى من العالم. كانت تلك الحضارة آخر الثورات الكبرى في تجربة البشرية. وكما كان الأمر في اكتشاف الزراعة أو ابتكار المدينة، فسيكون لهذه الحضارة وقع عميق، ما يزال إدراكنا وتقديرنا لتأثيراته في بداياته، حيث لن تعد الحياة تُعاش بالطريقة نفسها بعد الآن. ولعل أهم نتائج التجربة الجديدة - وربما الأكثر كارثية - هو موت الأسطورة.

الحداثة الغربية الجديدة هي وليدة اللوغوس. إذ تأسست على أسس إقتصادية مختلفة، بديلة عن الإعتماد على فائض الناتج الزراعي. ومثل كل الحضارات السابقة عليها، فقد تأسست المجتمعات الغربية على الإستغلال التكنولوجي للموارد والإستثمار الدائم لرأس المال. وهو ما حرر المجتمعات الحديثة من العديد من قيود الثقافات التقليدية، التي كانت تقوم على

أسس زراعية متقلقلة وغير مستقرة. قبل ذلك، كان الإختراع أو الفكرة التي يتطلب تنفيذها إنفاق رأس مال كبيراً، توضع غالبا على الرف، بسبب غياب المجتمع القادر على تمويل البنى التحتية للإنتاج الدائم، التي نتعامل معها نحن في عصرنا الحديث على أنها معطى طبيعي وبديهي. كانت المجتمعات الزراعية معرضة للإهتزاز بسبب اعتمادها على عوامل متقلبة ومتغيرة، من قبيل الحصاد وتآكل التربة. كانت الأمبراطورية تتوسع وتزيد من التزاماتها، وتتخطى، بنحو محتوم، إمكانياتها المالية. بالمقابل طور الغرب الحديث إقتصادا يتجدد وينمو إلى ما لا نهاية. وبدلا من التطلع إلى الماضي لحفظ ما تم إنجازه، كما هي عادة الحضارات السابقة على الحداثة، بدأ الشعب الغربي يتطلع نحو الأمام.

تطلبت عملية التحديث الطويلة، التي لازمت أوروبا لثلاثة قرون مضت، الإنغماس في سلسلة تحولات عميقة، مثل التصنيع، والتحول في الإنتاج الزراعي، وثورات سياسية وإجتماعية لإعادة تنظيم المجتمع على النجو الذي يلبي الشروط الجديدة، و"تنوير" فكري يقلل من قيمة الأسطورة ويجعلها غير ذات نفع، وخاطئة، وخارج الزمن.

كان الإنجاز الغربي مستندا إلى انتصار الروح العلمية الناشطة، حيث أصبحت "الفعالية" هي كلمة السر الجديدة. فعلى كل شيء أن يعمل، وعلى أية فكرة أو اختراع جديد أن يستعين بالأدلة العقلية ويبرهن على أنه متطابق مع العالم الخارجي.

على اللوغوس، خلافاً للأسطورة، أن يحيل إلى الحقائق والوقائع، وأن يكون عمليا وتطبيقيا، وأن يكون هو نمط التفكير الذي نستعمله لإنجاز شيئ ما. اللوغوس يتطلع إلى الأمام لتحقيق تحكم أوسع ببيئتنا ولاكتشاف شيئ جديد. من الآن وصاعداً، أصبح العالِمُ والمخترِعُ بطلَ المجتمع الغربي الجديد، الذي يجول ويغامر في عالم مجهول لا وجود له على الخريطة، من أجل مجتمعه. وعليه في أغلب الأحيان أن ينقلب ضد المقدسات القديمة - كما فعل حكماء العصور المحورية. إلا أن أبطال الحداثة الغربية هم عباقرة لوغوس تقنيون وعلميون، وليسوا عباقرة روحيين مُلهمين بواسطة الأسطورة. مما يعني أن نمط التفكير الاسطوري الحدسي، سيتم إلغاؤه لصالح الروح المنطقية والذرائعية الكامنة في العقلانية العلمية. ومع إعراض أكثر الشعب الغربي عن استعمال الأسطورة، فقد الكثير من الاساطير مغزاه ومعناه.

حصل تفاؤل جديد في الغرب، وشعر الناس أن لديهم سيطرة أكثر على بيئتهم ومحيطهم، ولم يعد هنالك قوانين مقدسة لا تقبل التعديل. أصبح بإمكانهم، وبفضل اكتشافاتهم العلمية، معالجة الطبيعة لتحسين مردودهم منها. كما أحدثت إكتشافات الطب الحديث، وعلوم الصحة، وتقنيات تنظيم العمل، وتطور وسائل النقل، ثورةً في حياة الشعب الغربي نحو الأفضل. ورغم ذلك، فإن اللوغوس لم يكن أبداً قادراً على توفيرِ إحساس بالمعنى لدى البشر، والذي يبدو أنهم ما زالوا يطلبونه ويبحثون

عنه باستمرار. فالأسطورة هي التي تعطي للحياة معنى وشكلا، إلا أنه ومع تقدم الحداثة، أحدث اللوغوس نتائج مذهلة، أصبحت الأسطورة بسببها قليلة القيمة. لذلك بتنا نشهد، في بدايات القرن السادس عشر، العديد من حالات اليأس، وأمراض الشلل الذهني، والشعور بالعقم والعجز والغضب. وقد زامن كل ذلك، تداعي طريقة التفكير الأسطورية وفقدان ما يعوض غيابها. بل ما زلنا حتى يومنا هذا، نشهد تداعيا لنظم البلاد الأخلاقية الإجتماعية، التي ما تزال في مراحل حداثتها المبكرة.

كان هذا الإغتراب في مطلع القرن السادس عشر، واضحا عند الإصلاحيين، الذين حاولوا جَعْلَ أوروبا أكثر أنسيابية وفعَّالة وحديثة. كان مارتن لوثر Martin Luther (1483-1546) فريسة الإكتئاب المؤلم وعوارض الغضب المفاجئ. وقد شارك كل من اولريش زوينغلي Ulrich Zwingli (1484-1531) وجون كالفن John Calvin (1509-64) لوثر في حالة العجز الأقصى وانقطاع حيلته أمام مِحن الوجود البشري - وهو المرض الذي دفعهم إلى البحث عن حل ما. أظهرت مسيحانيتهم الإصلاحية حجم العدوانية التي تكنها روح الحداثة الصاعدة ضد الوعي الأسطوري. ففي أديان ما قبل الحداثة، كان التشابه يعامل على أنه تطابق، بحيث يكون الرمز هو عين الحقيقة التي يمثلها. أما الآن، وبحسب الإصلاحيين، فقد أصبحت الشعيرة، كالقربان المقدس مثلاً، مجرد رمز لشيء مستقل عنها. وكسائر الشعائر في

زمن ما قبل الحداثة، كان القُداس الكنسي يُفعِّل موت المسيح الفدائي، الذي جعلته أسطوريته سرمديا وحقيقة معاصرة، أما بالنسبة إلى الإصلاحيين، فقد صار مجرد ذكرى وحدثا مضى لن يعود. أصبح هنالك تركيز جديد حول النص الديني، ومع إختراع الطباعة وانتشار التعليم، فقد تغيرت طريقة فهم الناس للنص المقدس، حيث حلت القراءة الصامتة والمتوحدة محل الترتيل اللوترجي الجماعي. أصبح بإمكان الناس الآن معرفة الإنجيل بتفاصيله الكبيرة وتكوين رأيهم الخاص فيه. ولأنه لم يعد من الواجب قراءة النص وفق مراسيم دينية أو في قداس، أصبح من السهل مقاربة النص بطريقة علمانية لغرض المعرفة الوقائعية فقط، مثل أي نص حديث آخر.

مثل أكثر الأشياء في الحياة، كانت الإكتشافات الحديثة محلا للإشكال والإضطراب. فقد فتح علم الفلك الجديد رؤية آخاذة عن الكون، وكان نيكولاس كوبرنيكوس Nicolas Copernicos (1473-1543) يرى في تحقيقه العلمي نشاطا دينيا مملوءاً بالرهبة، ومع ذلك فقد أحدثت اكتشافاته وضعا مُقلِقا، للدين بالتحديد. فحين جعلت الأسطورة، الناس يعتقدون أنهم جوهر ومركز الكون، تبين لاحقاً، وبفضل كوبرنيكوس، أن للأرض مدارها الخاص مثل باقي الكواكب التي تدور حول نجم ذي موقع هامشي في الكون اسمه الشمس. لم يعد بإمكانهم الوثوق بمعتقداتهم بواسطة أحاسيسهم، فالأرض التي بدت جامدة وساكنة هي في الحقيقة في حالة حراك سريع. شجع

الإكتشاف العلمي الناس على تكوين آرائهم الخاصة، وأصبحوا بالمقابل أكثر وأكثر مديونية للخبراء الحديثين القادرين وحدهم على فك رموز وشيفرة طبيعة الأشياء.

في بريطانيا، قام فرنسيس بايكون Francis Bacon (1561-1626) بتلاوة إعلان الإستقلال، الذي يحرر العلم من قيود الأسطورة. حيث دشن في كتابه "تقدم العلم" (1605)، عصرا جديدا ومجيدا، يضع فيه العلم حداً ونهاية لبؤس الإنسانية من أجل إنقاذ العالم. فلا شيئ يمكنه إعاقة هذا التطور، ولا بد من إخضاع جميع أساطير الدين لنقد صارم ودقيق، ومع مناقضتها للحقائق المبتوتة علمياً، لا بد من رميها جانباً. أصبح الدليل العقلي هو الطريق الوحيد إلى الحقيقة. ولعل العالم الأول الذي استوعب هذا المبدأ بالكامل هو إسحاق نيوتن Isaac Newton (1642- 1727)، الذي دمج مكتشفات من سبقوه، لغرض بلورة منهج بحث صارم ودقيق في الإختبار والإستنتاج. كان نيوتن يؤمن أنه يجلب إلى أخوته البشر معلومات غير مسبوقة عن العالم، وأن النظام الكوني الذي اكتشفه يتطابق بالكامل مع الوقائع والأدلة، وأن مكتشفاته تبرهن على وجود الله، الذي هو "الميكانيكي" العظيم الذي أخرج آلة الكون المُعقَّدة إلى الوجود.

إن الإستغراق الكامل في اللوغوس، جعل من المستحيل على نيوتن تقدير جانب الإدراك الحدسي. فالأسطورة والتصوف، هما بالنسبة إليه، أنماط تفكير بدائية، وكان لديه شعور بأن عليه مهمة تطهير المسيحية من معتقدات تناقض قوانين المنطق، كمبدأ

الثالوث. لم يكن يدرك أن هذه العقيدة تم ابتكارها من قِبل اللاهوتيين اليونان في القرن الرابع الميلادي كأسطورة، بطريقة تشبه أسطورة اليهود الكابالا. وكما فصَّل غريغوريوس Gregory أسقف نيقيا Nyssa (335-395)، أن الأسماء مثل: الآب والإبن والروح القدس، لا تشير إلى حقائق موضوعية ذات وجود خارجي، ولكنها ببساطة "عبارات نستعملها نحن" للتعبير عن طريقة تكيف الطبيعة الإلهية، التي "لا يمكن تسميتها أو التكلم عنها"، مع محدودية عقلنا البشري.[100] فلا يمكنك إقامة البرهان على وجود الثالوث بأدوات ووسائل عقلية، كما أنه -أي الثالوث- لا يوفر معاني أوضح من المعاني التي يقدمها الشعر أو الموسيقى. غير أن نيوتن لم يقارب الثالوث إلا مقاربة عقلية، فالشيء الذي لا يمكن شرحه وتفسيره منطقيا، فإنه يكون بنظره خاطئا. "إنه ذلك الجانب المزاجي والخرافي من البشر المتعلق بالدين"، كتب متحدياً، "الذي يجعل الناس مولعين بالأشياء الغامضة، ولهذا السبب يحبون ما يكون فهمهم له في حده الأدنى".[101] لم يَعُد علماء الكون والفلك الآن، يؤمنون بإله نيوتن العاقل، إلا أن الكثير منهم يشاركونه الاستناد إلى الدليل العقلي وعدم تساهله مع الأسطورة، حتى في الأمور والقضايا الدينية. وكما كان نيوتن، فهم يعتقدون أن الله يجب أن يكون حقيقة موضوعية ومُبرهناً عليها. لهذا السبب نجد أن الكثير من المسيحيين الغربيين لديهم مشكلة مع عقيدة الثالوث. وكما كان الأمر مع نيوتن، فقد أخفق هؤلاء في الفهم بأن الاسطورة

الثالوثية صُمِّمت لتذكير المسيحيين وتنبيههم بأن لا يتفكروا في الذات الإلهية كما لو أنها شخصية بسيطة.[102]

أخذ اللوغوس العلمي والأسطورة يفقدان التناغم بينهما، وصارت الممارسة العلمية خاضعة لمنهجية شاملة خاصة بها. إلى درجة أن الرياضي الفرنسي بلايز باسكال Blaise Pascal (1623-62)، الشخص العميق التدين، امتلأ رعبا عندما تأمل "الصمت الأبدي" للكون اللامتناهي الذي كشف عنه العلم الحديث:

"عندما أرى حالة البؤس والعمى في الناس، وعندما أتأمل الكون الواسع في حالة سكونه وموته، وأدرك أن الإنسان ترك وحيدا بلا ضوء، وكأنه ضائعٌ في زاوية من زوايا الكون، ولا يعرف من وضعه فيها، وماذا عليه أن يفعل، وما هو مصيره عندما يموت، وعاجزا عن معرفة أي شيء، ينتابني من كل هذا رعب شديد، وأكون كمن نُقل أثناء نومه إلى جزيرة صحراوية مخيفة، ثم استيقظ ليجد نفسه ضائعا ولا يملك أية وسيلة ممكنة للهرب. عند ذلك أتعجب من عدم دفع هذا البؤس الناسَ إلى اليأس.[103]

هذا النوع من الإغتراب والإستلاب أصبح جزءا، وما يزال، من تجربة الحداثة.

لقد بدا أن الغيمة قد زالت في فترة التنوير التي جرت في القرن الثامن عشر. حيث أدرك جون لوك John Lucke (1632-1704) حينها أن البرهان على وجود الله أمر مستحيل، على

الرغم من أنه لم يكن لديه أدنى شك بوجود الله، وأن البشرية دخلت عصرا أكثر إيجابية من قبل. كذلك، فقد رأى فلاسفة التنوير الألمان والفرنسيون، أن الأديان الأسطورية والصوفية القديمة أصبحت من مخلفات التاريخ. وهذا هو موقف اللاهوتيون البريطانيون جون تولاند John Toland (1670-1722) وماثيو تِندال Mathew Tindal (1655-1733) أيضاً. أصبح اللوغوس هو الطريق الوحيد إلى الحقيقة، وعلى المسيحية أن تتخلص من كل ما هو غامض وأسطوري. وهذا ما دفع البعض إلى تفسير الأساطير القديمة كما لو أنها حقائق، وهو تطور جديد، انتهى بخيبة أمل، بحكم أن هذه القصص لم تكن أبداً ولن تكون، مستندة إلى وقائع.

المفارقة هنا، أن عصر العقل نفسه شهد فورة من اللاعقلانية. فالهوس الكبير بالشعوذات في القرنين السادس والسابع عشر، والذي اكتسح الكثير من البلدان الكاثوليكية والبروتستانتية في أوروبا، أظهر أن العقلنة العلمية لا يمكنها دائماً السيطرة والتغلب على قوى العقل الإنساني الظلامية وهي في حالة هيجان. أفضى هوس الشعوذات السحرية، الذي هو عبارة عن هلوسات واضطرابات جماعية، إلى قتل وتعذيب الآلاف من الرجال والنساء، بسبب اعتقاد الناس حينها بأن السحرة يمارسون الجنس مع الشيطان، ويطيروا في الهواء لحضور إجتماعات شيطانية. سَبب كل ذلك، هو أن الناس، مع غياب ميثولوجيا قوية قادرة على تفسير خوفهم اللاواعي، عمدوا

إلى عقلنة هذه المخاوف والتعامل معها كحقائق واقعية.

كان اللا-منطقي المخيف والمدمر، جزءا من تجربة البشر دائماً، وما زال. إذ نلمس انبثاق اللا-عقلانية عند بعض الحركات المسيحية في زمن الحداثة التي حاولت ترجمة مُثُل التنوير إلى أشكال دينية. وقد سمي البعض منهم ب "المهزوزين"، لتعودهم على الإرتجاف والصراخ والعواء أثناء إجتماعاتهم. وكذا الأمر بالنسبة لبعض الطهريين، الذين كانوا من الرأسماليين الناجحين والعلماء الجيدين، ومع ذلك، فقد كان لديهم روحانية مضطربة وتجارب من التحولات المؤلمة، التي لم يكن الكثير منهم مجهزاً لتحملها، الأمر الذي أوقع الكثير من منهم في حالة إكتئاب، ودفع البعض منهم إلى الأقدام على الإنتحار.[104]

يمكن تلمس العوارض نفسها أثناء الصحوة الكبرى الأولى في انكلترا الجديدة (1734-40). حين عمل الجميع على أن يكون صوفياً وعلى تحقيق حالة روحية بديلة. وبسبب أن مستويات التصوف العليا ليست في متناول أي شخص، لأنها تتطلب موهبة خاصة، ومزاجا خاصا، وتدريب فرد لفرد، فقد أدت تجربة الجماعات، التي لا يملك أفرادها الآهلية والمهارة الشخصية الكافيتين، إلى الهستيريا الجماعية، وولادة أمراض عقليه في أفرادها.

في مطلع القرن التاسع عشر، بدأ الناس في أوروبا يعتبرون

الدين أمراً مُضِراً. حيث جادل لودفيغ فيورباخ Ludwig Feurbach (1804-72) بأن الدين يجعل الناس تغترب عن إنسانيتها، كذلك رأى كارل ماركس Karl Marx (1818-83) أن الدين عارض من عوارض المجتمعات المريضة، وبالطبع فإن الدين الاسطوري سوف يحدث جدلا غير صحي. كان هذا القرن بمثابة العصر العلمي، وظن الناس أن بإمكانهم حفظ تقاليدهم إلى جانب ذلك العصر الجديد، بيد أن ذلك سيكون مستحيلا عليهم، إذا اعتقدوا أن فهم تلك الاساطير يجب أن يكون حرفياً. من هنا حدثت حينها الضجة الكبرى، التي أطلقها كتاب أصل الأنواع (1858)، الذي نشره شارلز داروين Charles Darwin (1809-1882). ورغم أن الكتاب، لم يقصد منه مهاجمة الدين، بل كان مجرد تفسير هادئ ومتوازن لفرضية علمية، إلا أن المسيحيين، وبحكم أنهم يقرؤون عملية خلق الكون في كتاب سفر التكوين كحقائق واقعية، فقد شعر الكثير منهم - وما زالوا حتى يومنا هذا - أن أسس الدين في حالة خطر كبير. مع العلم، أن قصص الخلق في التوراة، لم ينظر إليها يوما كوقائع تاريخية دقيقة، بل كان الهدف منها علاجيا. فحين تبدأ بقراءة سفر التكوين وتتعامل معه على أنه نص علمي صحيح، فسيكون لديك حينها علم ودين سيئان.

بين النقد الحديث، بعد تطبيق منهجيات علمية حديثة على الإنجيل نفسه، إستحالة قراءة الإنجيل حرفياً، وبرهن على عدم صحة الكثير من ادعاءاته. فالإسفار الخمسة المنسوبة لموسى

مثلا، لم تكتب من قبل موسى، بل كتبت في فترة لاحقة ومن عدة مؤلفين، وأن الملك داوود لم يؤلف المزامير، وأن أكثر قصص المعجزات كانت مجازية. كانت الروايات التوراتية أسطورية، مما يعني أنها، وبالتعبير الشعبي، غير صحيحة. هذا النوع من النقد، كان مصدر خوف وقلق عند البروتستانت الأصوليين، الذين ادعوا أن كل كلمة في الإنجيل (العهد القديم والجديد) هي صحيحة بكل معنى الكلمة، سواء بمعناها الحرفي أو التاريخي أو العلمي. وهو موقف لا يمكن الدفاع عنه، لأنه لا يؤدي إلا إلى مزيد من الإنكار والجدل الدفاعي.

مع نهاية القرن التاسع عشر، وصلت الحدة المتبادلة بين اللوغوس والاسطورة إلى ذروتها. حيث آمن محاربون مثل توماس هاكسلي Thomas Huxsley (1825-95) بأنهم في وضعية حرب، وعلى الناس أن تختار بين الأسطورة وبين العلم العقلي والمنطقي، ولا مجال للتسوية، لأن الدليل العقلي هو وحده الحقيقي، أما أساطير الدين كلها فلا حقيقة لها. إلا أن المشكلة هنا، أنه تم تضييق مفهوم الحقيقة وحصره بما: "يمكن إثباته وما يمكن التعبير عنه".[105] وهو مفهوم، لا يستثني حقائق الدين فقط، بل يستثني الحقائق المعبر عنها بواسطة الفن والموسيقى. بمعاملة الأسطورة كما لو أنها عقلية ومنطقية، جعل العلماءُ الحديثون والنقاد والفلاسفة منها شيئا لا يمكن تصديقه. ففي العام 1882، أعلن فريدريك نيتشه Fredrick Nietzche (1844-1900) موت الله. وكان محقاً، بمعنى ما. إذ بدون الأسطورة

والشعائر والطقوس والحياة الأخلاقية، فإن حس القداسة عند الناس سيموت، وحين يتحول الله إلى حقيقة وطنية شاملة، لا يصل إليه إلا المفكر الناقد، يكون الرجل والمرأة الحديثان قد قتلاه في داخلهما. لقد آمن الرجل المجنون في قصة نيتشه القصيرة "العلم الجذل" بأن موت الله مزَّق الإنسانية من جذورها: "هل هنالك فوق أو تحت؟ يسأل، " ألم نتُهْ كما لو كنا داخل عدم لا نهاية له؟ "(106)

ساعد التفكير والممارسة الأسطوريان الناس على مواجهة مشهدي الفناء والعدمية، والخروج من تلك المواجهة بدرجة رضى مقبولة، حيث كان يصعب على الكثيرين، بدون هذا المسلك، تجنب اليأس. لذلك نجد القرن العشرين يقدم لنا أحداثا مفصلية ذات طبيعة عدمية، الواحدة تلو الأخرى، تبين معها أن العديد من الآمال المسرفة كانت خاطئة. أظهر غرق التايتانك عام 1912 هشاشة التكنولوجيا، وكشفت الحرب العالمية ألأولى أن صديقنا العلم يمكن تطبيقه لأغراض تسلُّحٍ قاتلة. كما ونطقت مدن الأوشويتز وجولاق والبوسنة، بما يمكن أن يحدث عندما يزول فيها حس القداسة. أدركنا أن التعليم العقلاني والمنطقي لم يحرر الإنسانية ويخلصها من البربرية، وأن مخيمات الإعتقال الجماعي يمكن تواجدها ضمن حرم الجامعة الكبير، وأن إنفجار القنبلة النووية الأولى فوق هيروشيما وناكازاكي قدم شاهداً على جرثومة التدمير-الذاتي العدمي الكامنة في قلب الثقافة الحديثة، وأن الهجوم على مركز التجارة العالمي

في 11 أيلول من العام 2001، أظهر أن فوائد تكنولوجيا الحداثة وسهولة السفر ونظام الإتصالات العالمية، يمكن أن تكون جميعها أدوات بيد الإرهاب.

حول اللوغوس حياتنا إلى الأحسن في مجالات عدة، لكنه ليس تحولا مريحا. فعالمنا الخالي من الأسطورة قد يكون مريحا للكثير من المحظوظين الذين يعيشون في بلاد العالم الأول (الغربي)، ولكنه ليس الجنة الأرضية التي تنبأ بها بايكون ولوك. فعندما نتأمل التمظهرات المظلمة للقرن العشرين، نجد أن مظاهر التوتر والعصاب الحديثة لم تكن ناجمة عن توترات ذاتية، بل نحن نواجه شيئا غير مسبوق.

هنالك مجتمعات ترى أن الموت عبارة عن انتقال إلى نمط وجود آخر. لم تبلور هذه المجتمعات أفكاراً ورؤى معقدة عن حياة ما بعد الموت، ولكنها ابتكرت شعائر وأساطير ساعدت الناس على التعامل مع الذي لا يمكن التكلم عنه. لا توجد ثقافة في العالم، تمكّن الفرد أن يستقر من دون حل معضلة الرعب والخوف لديه. وهذا ما علينا فعله مع غياب أسطرة حية وفاعلة. ورغم وجود تصوف وزهد بطولي داخل النبذ الجاري للأسطورة، غير أن نمط التفكير المنطقي والتاريخي، حرم العديد منا من العلاجات والإبتكارات التي مكنت الرجال والنساء من استنفار كامل إمكاناتهم الإنسانية من أجل التعايش مع غير المقبول.

ربما أصبحنا أكثر تطورا وتعقيدا في مجال الحياة المادية،

ولكننا لم نتقدم روحيا أكثر مما حصل في العصر المحوري. ويسبب إلغائنا للأسطورة بل وارتدادنا عنها، ما زال الطريق أمامنا طويلا للعبور إلى ما وراء ظروفنا الآنية، وللدخول في الزمان الممتلئ، الذي يمثل الوجود الأكثر كثافة وإشباعاً. نحاول أن ندخل هذا البعد من خلال الفن وموسيقى الروك والمخدرات، أو الدخول في منظور الأفلام الذي هو أوسع من الحياة. ما زلنا نبحث عن أبطال، حيث تم تحويل كل من إلفيس بريسلي والأميرة ديانا إلى كائنات أسطورية فورية، بل رموز لعبادة دينية. لكن هنالك شيئاً غير متوازن في هذا النوع من التملق. إذ لم يقصد من أسطورة البطل أن تقدم لنا أيقونات لنعجب بها، بل صُممت لتحريك شِريان البطولة في داخلنا. الأسطورة تدفعنا إلى تقليد البطل ومحاكاته أو مشاركته، وليست مجرد تأمل سلبي. لم نعد نعرف كيف ندير حياتنا الأسطورية بطريقة تخلق فينا التحدي والتحول.

علينا أن نحرر أنفسنا من وهم المعتقد الخاطئ الذي تشكل في القرن التاسع عشر، بأن الأسطورة خاطئة أو أنها نمط متدن من التفكير. طبعاً لا نملك القدرة على إعادة تكوين أنفسنا بالكامل، أو أن نلغي الإنحياز العقلاني الحاصل في ثقافتنا، أو أن نستعيد حساسية ومشاعر ما قبل الحداثة. إلا أنه يمكننا بالمقابل حيازة سلوك أكثر وعيا ومعرفة بالميثولوجيا. نحن مخلوقات صانعة أساطير، وقد شهدنا في القرن العشرين، العديد من الأساطير الحديثة المدمرة، والتي أنتهت بمذابح وقتل

جماعي. أخفقت هذه الأساطير لأنها لم تلب معايير وشروط العصر المحوري، بسبب أنها لم تتشبع بروح التعاطف والرحمة، واحترام وتقديس كل أشكال الحياة، أو مع ما يسميه كونفوشيوس "اللِّين". تم تضييق الميثولوجيات المُدَمِّرَة في القرن العشرين، إلى حدود العنصرية والإثنية والهيمنة الفردية، في محاولة لتمجيد الذات عبر الإنتقاص من الآخر. كل هذه الأساطير خذلت الحداثة التي خلقت قرية كونية، يجد جميع البشر فيها أنفسهم في المأزق نفسه. ولا يمكننا تصحيح هذه الاساطير السيئة بالأسلوب المنطقي، لسبب أن اللوغوس المطلق والكامل، لا يمكنه معالجة المخاوف والرغبات والإضطرابات العصبية المتجذرة فينا، فهذا دور الميثولوجيا المشبعة بالأخلاقيات والروحانيات.

نحتاج إلى الاسطورة كي تساعدنا على التعرف على أخوتنا في الإنسانية والتآلف معهم، ليس فقط أولئك الذين ينتمون إلى قبيلتنا القومية والإيديولجية والإثنية. نحتاج إلى الأسطورة كي تساعدنا على إدراك قيم التعاطف والتآلف التي قد لا تكون ذات مردود ومنفعة مادية كافيين في عالمنا الذرائعي والعقلاني. نحتاج إلى الأسطورة لتساعدنا على تكوين سلوك روحاني يمكننا من التعرف على ما وراء المتطلبات الآنية، ومن اختبار قيم سامية تتحدى محورية حب الذات فينا. نحتاج إلى الأسطورة لكي تساعدنا على تثمين الأرض من جديد كشيء مقدس بدلا من استعمالها كمورد. هذا أساسي وضروري في عصرنا، وما لم يكن

هنالك ثورة روحية مواكبة لعبقريتنا التكنولوجية، فلن نستطيع إنقاذ كوكبنا.

في العام 1922، صوَّر ت.س. إليوت T.S. Eliot تصدع الثقافة الغربية الروحي، في قصيدة مميزة عنوانها *Waste land* "الأرض اليباب". وهي المكان المذكور في اسطورة الطبق المقدس Holy Grail(*)، حيث يعيش فيها الناس حياة خالية من الإبتكار، ويتَّبعون معايير مجتمعهم بشكل أعمى من دون أي فهم عميق لها. كأن القصيدة تثير تساؤلاً حول إمكانية زرع جذور خلاقة وسط "نفايات متحجرة" من الحداثة التي فقد فيها الناس حس الإتصال بالأسس الأسطورية الحاملة لثقافتهم وحضارتهم. فبدلا من فهم الناس لتناغم تقاليدهم الداخلي، يعرفون فقط "كومة من الصور المتكسرة". كشف إليوت للعيان، وبأسلوب التلميح المؤثر والقاسي إلى أساطير الماضي في أوروبا والهند والبوذية واليونان والرومان، عن عقم الحياة المعاصرة، لجهة استلابها ومللها وخرافاتها وفردانيتها وأنانيتها ويأسها. وفيما هو يستعرض الموت الفوري للحضارة الغربية، يستنتج راوي القصة أن: "هذه الأجزاء الصغيرة قد جمعتها (من الحضارات القديمة) مقابل بقاياي المتهدمة". كان يمكن لتلك الرؤى المجزأة التي جمعها إليوت في قصيدته عن الماضي، أن تسعفنا وتنقذنا. فعندما نعيد تركيب هذه الرؤى ونتعرف على لبها، يصبح

(*) الطبق المقدس Holy Grail، بحسب الميثولوجيا المسيحية، هو الطبق أو الصحن أو الكأس الذي استعمله السيد المسيح في العشاء الأخير.

بالإمكان إستصلاح "الأرض اليباب" التي نعيش فيها.

يتسم شِعر إليوت بأنه نُبوئي. مثل كتاب وفنانين آخرين بادروا، بدلا من القادة الدينيين، إلى معالجة حالة الخواء المعاصرة واستلهام حِكم الماضي الأسطورية، في محاولة منهم لإيجاد مضاد حيوي ضد عقم وقساوة إفرازات الحداثة.

فنجد رسامين مثلا تحولوا نحو أفكار أسطورية. إذ في 26 نيسان من العام 1937، وفي حمأة الحرب الأهلية في أسبانيا، هاجمت الطائرات النازية، وبأمر من الجنرال فرانكو، عاصمة الباسك في غورنيكا Guernica في يوم تسوقها، فقتلت 1654 شخصا من أصل حوالي 7000 شخص من سكانها. بعد أَشهُرٍ قليلة، عرض بابلو بيكاسو معرض غورنيكا في المعرض الدولي في باريس، حيث أحدث مشهد الصلب (Crucifixion) العلماني والحديث، هزة في ضمير معاصريه. وكما كانت قصيدة "الأرض اليباب" لإليوت، فإن معرض بيكاسو كان رسالة نبوئية وصرخة مدوية ضد لا-إنسانية عالمنا الجديد والشجاع.

كانت رسوم بيكاسو مشبعة بالتعاطف، وبالقدرة على تحسس آلام الآخرين. وقد ألهمت القرابين رؤى بعض الأساطير المبكرة. ففي العصر الباليوليثي، أحس الناس بقرابة محيرة مع الحيوانات التي يصطادونها ويقتلونها، وقد عبروا عن آلمهم وحزنهم البدائي هذا بطقوس القرابين التي تكرِّم الوحوش لأنها تهب حياتها للبشرية. في معرض غورنيكا، تنظر إلى صور البشر والحيوانات، كأنهم ضحية ذبح طائش لا يميز، تراهم يتمددون فوق بعضهم

البعض في كومة معصورة. هناك حصان يصرخ حيث التف جسده مع أجساد بشر مقطوعة الرأس. تشاهد منظر المرأة على قدمي الصليب، في إيحاء لا ينتهي لصلب المسيح، وامرأتين تحدقان في الحصان المجروح وهما في حالة تعاطف وشفقة حزينة لألمه. كانت الأم العظيمة، في مجتمعات ما قبل التاريخ، صيادا يصعب تهدئته أو إرضاؤه، إلا أن الأم الحاملة جسد طفلها المشوه، في لوحة بيكاسو، أصبحت ضحية تُطلِقُ صرخةً صامتة. خلف هذه المرأة هنالك ثور، يمثل في رسمة بيكاسو، القسوة والعنف. كان بيكاسو مأخوذا دائماً بمراسيم مصارعة الثيران، التي هي الرياضة الوطنية في أسبانيا، والتي تعود جذورها إلى إحتفالات القرابين القديمة. لم يبدُ ثور بيكاسو متوحشا، بل كان واقفا مع الضحايا الآخرين، يهز ذنبه ويتفحص المشهد، في إشارة إلى وصول تلك اللحظة التي يخرج فيها الثور من مشهد صراع الثيران ليقدر خطوته أو حركته التالية. ولأن الثور هو نفسه أضحية، فإنه وهو رمز القسوة، سينتهي إلى الموت. لعل بيكاسو يريد من هذا المشهد، الإيحاء بأن البشرية الحديثة أيضاً ذاهبة إلى الهلاك رغم قوتها وقسوتها. ومع أن بيكاسو لم يكن مدركا مآلات عمله، فقد دشنت رسومه البداية في استكشاف الإحتمالات القوية والعالية للتدمير الذاتي العالية، واستعراض أشكال العنف المحسوبة عقليا بدقة.

لجأ الروائيون أيضاً إلى الأسطرة، في محاولة منهم لإظهار معضلة وإشكالية الحداثة. يكفي أن نذكر رواية "يوليسيس"

Ulysses لجايمس جويس James Joyce، التي طبعت في نفس العام الذي طبعت فيها قصيدة "الأرض اليباب"، حيث تحيل تجربة الشخصية الرئيسية في القصة، والمعاصرة أيضاً، إلى ملحمة أوديسا لهوميروس. كذلك فإن المبدعين الواقعيين أمثال جورج لويس بورجو George Luis Borges، غنتر جراس Gunter Grass، إيتالو كالفينو Italo Calvino، أنجيلا كارتر Angela Carter، وسلمان رشدي، كانوا ممن تحدى هيمنة اللوغوس من خلال دمجهم الواقعي مع ما لا يمكن شرحه، والمنطق اليومي مع منطق الحلم الأسطوري والقصص الخيالية. كذلك، فقد كان هناك روائيون آخرون صمموا رواياتهم في المستقبل. من هؤلاء، جورج أورويل الذي كتب رواية: "ألف وتسعماية وأربعة وثمانون" (1949)، التي يحذر فيها من خطر الدولة البوليسية التي تحصر الحقيقة بالقوة، ومن خطر تحريف الماضي لصالح الحاضر. كان هنالك جدل دائم حول المغزى الدقيق لرسالة أورويل، ولكنها، كما فعلت أساطير الماضي، دخلت الوعي الشعبي العام، وتسرب العديد من جملها وتعابيرها وصورها، بما فيه عنوان الرواية نفسها، إلى مفردات التخاطب اليومي، مثل: الأخ الكبير، التفكير المزدوج، اللغة المبهمة Newspeak، غرفة رقم 101، وهي مفردات ما تزال تستعمل للتعريف بتوجهات وخصائص الحياة الحديثة، حتى من قبل أشخاص لم يقرأوا تلك الرواية أبداً.

لكن هل يمكن للرواية العلمانية (غير الدينية) استنساخ

الأسطورة التقليدية والحلول محلها، مع ما تتضمنه تلك الأساطير من آلهة وإلاهات؟ رأينا سابقا، أن الألوهة في عالم ما قبل الحداثة، كانت نادرا ما تبجل بعبارات ميتافيزيقية يمليها اللوغوس الغربي، بل كانت تستعمل لمساعدة الناس على فهم إنسانيتهم. ومع تغير ظروف الناس، تراجعت الآلهة على الأغلب، متخذة موقعا هامشيا في الميثولوجيا والدين، بل كانت في بعض الأحيان تختفي بالكامل. لا شيء جديد في ميثولوجيا الإلحاد في الروايات المعاصرة، التي تتعارك مع العديد من المشاكل الصعبة والمحيرة للوجود الإنساني العام، كما كانت الأساطير القديمة تفعل ذلك، وتجعلنا ندرك - مع قطع النظر عن مكانة وحال الآلهة - أن البشر كائنات أوسع من ظروفها المادية، وأنها تحمل دائماً قيم القداسة والألوهة.

لما كان الروائي والفنان يمارسان عملهما على درجة متساوية من الحساسية، باعتبارهما من صناع أساطير، تجدهما يتناولان وبشكل طبيعي نفس الأفكار والموضوعات. فرواية "قلب الظلام" *Heart of Darkness* لجوزيف كونراد Joseph Conrad هي بمثابة مسعى بطولي وفعل تكريس (أو تعميد) لم يحققا نتائج صحيحة. طبعت الرواية في العام 1902، أي قبل أن يبدأ الغرب في التعرف على أوهامه، وهي تشرح فيها إقامة السيد كورتز Kurtz العالي التحضر، في الغابات الأفريقية. في الميثولوجيا التقليدية، يترك البطل أمان العالم الإجتماعي وراءه، ويكون عليه غالبا النزول إلى أعماق الأرض، حيث يقابل

الجانب الحقيقي من نفسه وتؤدي تجربة العزلة والحرمان إلى إنهيار نفسي، وتقود إلى رؤى جديدة وحيوية. وإذا نجح مسعى البطل، فإنه يعود إلى شعبه مع شيء جديد وقيِّم. أما في رواية كونراد، فتجري انهار أفريقيا المتعرجة داخل قنوات لاسكوكس Lascaux الخفية، والتي يزحف عبرها المُعمَّدون الأوائل إلى رحم الأرض. وفي العالم التحتي لأدغال البدائيين الأوائل، ينظر كورتس بالفعل في ظلمة قلبه، لكنه يبقى عالقا داخل نكوصه ويموت روحيا، ليصبح رجل شامان غير منجز، لا يحترم بل يحتقر الجماعات الأفريقية التي يسيء معاملتها. يتعلم البطل الأسطوري، أنه إذا أمات نفسه فإنه سيولد من جديد. لكن كورتس يبقى ممسوكاً داخل شبكة أنانيته العقيمة، وعندما يخرج أخيرا إلى سطح الأرض، يكون لديه قذارة وفحش الجثة المُحيَّاة. ولأنه مهووس بشهرته فقط، لم يكن سعى كورتس بطولياً بل لتحقيق شهرة عقيمة. لم يعد قادرا على توكيد المعنى البطولي للحياة، بل كانت كلماته الأخيرة قبل موته: "الرعب الرعب"، وهي الكلمات نفسها التي اختتم بها ت. س. إليوت قصيدته في "الأرض اليباب". إن كونراد هو نبي فعلا، لأنه تعرف مسبقاً على تفاهة الأنانية والطمع والعدمية واليأس في القرن العشرين.

استعمل توماس مان، الفكرة الرئيسية نفسها لتأليف روايته "الجبل السحري" The Magic Mountain (1924)، التي تجري أحداثها أثناء مفصل درامي آخر في التاريخ الغربي. ورغم اعترافه بأن هذا لم يكن مقصده الأصلي، إلا أنه وعندما أشار إليه عالم

شاب في جامعة هارفرد، أن القصة هي مثال معاصر عن "البطل الساعي"، أدرك مباشرة أن قصته تعبر عن ذلك في الواقع. وجد مان أن ميثولوجيا السعي كانت مغروسة في لاوعيه وأنه كان منساقا لها من دون أن يدري حقيقة ما يفعله. كان مِصح دافوس، في قصة مان، ليصبح "مزاراً لطقوس التكريس (التعميد)، ومكاناً لمغامرة البحث في سر لحياة". بطل القصة هانس كاستراب Hans Castrop، هو باحث عن الطبق لمقدس، الذي يرمز إلى "المعرفة والحكمة والقداسة" التي تهب معنى للحياة. "عانق كاستراب طوعا المرض والموت، ليقينه بأن احتكاكه الأول معهما سيحقق له تقدماً استثنائياً محاطاً بالطبع، بتبعات خطرة جداً". ومع ذلك، فإن هذا النوع من الممارسة، يتشارك مع القرن العشرين في ابتذاله المزمن. إذ رأى مان أن المرضى في المصح هم "حلقة مغلقة من الإنبهار بالعزلة والفردانية". فحين كان الساعي التقليدي الأولي يهدف إلى تحقيق الفائدة لمجتمعه، كان كاستروب منخرطاً في مسعى أناني وطفيلي وتافه.[107] صرف كاستروب سبع سنوات على جبله السحري، يحلم بتحقيق حلمه العظيم حول الإنسانية، وإذا به يموت لاحقاً في الحرب العالمية الأولى، التي يمكن وصفها بأنها انتحار أوروبا الجماعي.

تجري أحداث قصة مالكوم لوري Malcolm Lawry "تحت البركان" *Under The Volcano* (1949)، في المكسيك في مشارف الحرب العالمية الثانية، وتستعرض فيها، اليوم الأخير من حياة القنصل المدمن على الكحول، الشخصية الكامنة، ليس

داخل لوري (مؤلف القصة) فحسب، بل داخل كل شخص منا.
تبدأ القصة في متجر لبيع الكحول في ديل باسكDel Bosque،
مستحضرة "الغابة المظلمة" من جحيم دانتي، في يوم الموتى،
الذي يُعتقد فيه أن الموتى يتصلون بالأحياء. يستند لوري، في كل
القصة، إلى الرؤى الأسطورية القديمة بأن الحياة والموت
متقارنان دائماً. فترى القصة تقرن جنبا إلى جنب: الحياة
المزدحمة مع جمال طبيعة المكسيك، جنة عدن مع صور الموت
والظلام الجهنمية. من الواضح، على ما يبدو، أنه حتى التفاصيل
الهامشية والمبتذلة تكتسب معنى كونيا، فالناس يحتمون من
العواصف مثل ضحايا الحرب الذين يختبؤون في ملاجئ العالم
هربا من الغارات، تنطفئ أضواء السينما ما ان تغرق أوروبا في
الظلام. يذكرنا الإعلان لفيلم "las monas de Orlac" بيديها
الملطختين بالدماء بالذنب الجماعي للبشرية، أما الدولاب
العامودي Ferris Wheel فيه فيرمز إلى الزمن الذي يمضي،
ويذكرنا المزارع الميت على قارعة الطريق بأن كل البشر في
أرجاء الأرض سيموتون فجأة وبدون سابق إنذار. ما أن يغرق
القنصل في السِكر المزمن، حتى تحوز الأشياء المحيطة به على
كثافة مُهلوَسَة، بحيث تتعالى الأحداث والموضوعات على
سماتها الخاصة. في الميثولوجيا القديمة، كان لكل شيء دلالة
مقدسة، ولا وجود لشيء أو نشاط مدنس أو دنيوي. ما أن يتابع
يوم الموتى تقدمه في قصة لوري، حتى لا يعود هنالك شيئ
حيادي، بل يصبح لكل شيء دلالة مصيرية.

هذه القصة، تصور لنا حالة سِكر العالم قبل العام 1939. فكل شربة يحتسيها القنصل، تأخذه خطوة إلى الأمام نحو حتفه المحتوم. وكما القنصل، فإن البشرية أصبحت خارجة عن السيطرة وتتقدم مترنحة نحو الكارثة. بعد أن تملكتها أمنية الموت، أصبحت فاقدة القدرة على الإستمرار في الحياة وعلى حيازة الرؤية الواضحة. هذا مثل الكاباليين الذين يقرنون الصوفي الذي يسيء استعمال قدراته الروحية بالسكران. الفكرة المركزية في القصة، هي أن البشرية مثل ساحر ضل طريقه، لأنها أطلقت طاقات لا يمكن التحكم بها وستدمر عالمها بالكامل. يخبرنا لوري أنه كان يفكر هنا بالقنبلة النووية. ومع ذلك، فإن الرواية ليست بذاتها عدمية، بل هنالك تعاطف عميق في إثارتها لعناصر الشفقة، والجمال، وعبثية البشرية المحبوبة.

تبين لنا من كل هذه الأمثلة، أن الأسطورة لا يمكن مقاربتها بطريقة دنيوية صرف، بل تفهم فقط في مناخ شعائري وسياق طقوسي يجعلها على مسافة مستقلة عن الحياة اليومية. لذلك لا بد من اختبارها كجزء من عملية تحول شخصي. لا شيء من هذا بالطبع ينطبق على الرواية التي يمكن قراءتها في أي مكان وبدون أية قيود طقوسية، ولا بد لها، إذا كانت حاوية لشيء من الجودة، أن تتجنب التفاصيل المملة. بيد أن تجربة قراءة القصة تظهر سمات ذات قيمة، تذكرنا بالإدراك التقليدي للميثولوجيا. يمكن اعتبار قراءة القصة، شكلاً من أشكال التأمل، إذ على القراء أن يعيشوا مع القصة لأيام وحتى لأسابيع، لأنها

تنقلهم إلى عالم آخر، مواز للحياة اليومية ومنفصل عنها في آن. نعرف بوضوح أن عالم الرواية الخيالي هذا، ليس حقيقيا، ومع ذلك، تكون الرواية حين نقرؤها محلا للإعجاب والإهتمام. تصبح القصة لوحة حياتنا الخلفية، لفترة طويلة جداً بعد إلقائنا الكتاب جانبا. إنها ممارسة التظاهر بالإعتقاد، كما هي ممارسة اليوغا أو الإحتفالات الدينية، التي تكسر حواجز الفضاء والزمن وتنشر أحاسيس الشفقة فينا، لنتمكن من مشاركة الآخرين آلامهم وأحزانهم. إنها تعلم التعاطف والقدرة على "الشعور مع" الآخرين. وكما هي الميثولوجيا، فإن القصة المهمة هي التي تحدث أثرا تحولياً في حياة الناس.

الميثولوجيا كما تبين لنا، هي نتاج فني. وكل عمل فني قوي، قادر على اجتياح كينونتنا وتغيرها إلى الأبد. وقد ادعى الناقد البريطاني جورج ستاينر George Steiner، أن الفن، مثل أنواع خاصة من التجارب الدينية والميتافيزقية، هو أكثر النداءات المتاحة "اقتحاما" وتحولا في تجربة الإختبار الإنساني. إنها الطيش المتطفل والعدواني الذي "يقتحم ويسائل الخصوصيات النهائية من وجودنا"، إنها الإعلان الذي "يقتحم بيتنا الصغير داخل كينونتنا الحذرة"، بحيث "لا يعود مسكونا بالطريقة نفسها التي كان عليها من قبل". إنها مواجهة متعالية تأمرنا بطريقة مؤثرة: "غير حياتك"[108]

إذا كتبت الرواية وقرأت بتركيز جَدِّي، تكون كالأسطورة أو أي عمل آخر عظيم، قادرة على أن تكون طقساً تدشينياً مؤلماً

يساعدنا على العبور والتحول من مرحلة معينة في حياتنا، ومن حالة معينة في ذهننا، إلى حالة أخرى. الرواية، مثل الأسطورة، تعلمنا أن نرى العالم بطريقة مختلفة، ترينا كيف ننظر في قلوبنا وكيف نرى عالمنا بمنظور يذهب إلى ما وراء اهتماماتنا الخاصة. مع عجز قادة الأديان المحترفين من توجيهنا وفق التقاليد الأسطورية، أصبح بإمكان فنانينا وكتابنا المبدعين تقمص هذا الدور الكهنوتي، ليحملوا إلى عالمنا الضائع والتالف، رؤى جديدة وحية.



المراجع



(1) Mircea Eliade, The Myth of the Eternal Return of Cosmos and History (trans. Willard R. Trask, Princeton, 1994), Passim.

(2) J. Huizinger, Homo Ludens, (trans. R.F.C. Hall, London), 1949, 5-25.

(3) Huston Smith, The Illustrated World Religions, A Guide to our Wisdom Traditions (San Francisco, 1991), 235.

(4) Mircea Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, The Encounter between Contemporary Faiths and Arabic Realities (trans. Philip Mairet, London, 1960), 59-60.

(5) Ibid, 74.

(6) Mircea Eliade, Patterns in Comparative Religion (trans. Rosemary Sheed, London, 1958), 216-19; 267-72.

(7) Ibid, 156-85.

(8) Eliade, Patterns in Comparative Religion, 38-58.

(9) Rudolf Otto, The Idea of the Holy, An Inquiry into the non-rational factor in the idea of the divine and its relation to the rational (trans. John Harvey, Oxford, 1923), 5-41.

(10) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 172-8; Wilhelm Schmidt, The Origine of the Idea of God (New York, 1912), passim.

(11) Eliade, Patterns in Comparative Religion, 99-108.

(12) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 54-86.

(13) Joseph Campbell With Bill Moyers, The Power of Myth (New York, 1988), 87.

(14) Ibid.

(15) Eliad, Myths, Dreams and Mysteries, 63.

(16) Walter Burkert, Homo Necans, The Anthropology of Ancient Greek Sacrificial Ritual and myth (trans. Peter Bing, Los Angeles, Berkeley and London, 1983), 88-93.

(17) Ibid., 51-22.

(18) Campbell, The Power of Myth, 72-74; Burkert, Homo Necans, 16-22.

(19) Joannes Sloek, Devotional Language (trans. Henrik Mossin, Berlin and New York, 1996), 50-52, 68-67, 135.

(20) Walter Burkert, Structure and History in Greek Mythology and Ritual (Berkeley, Los Angeles and London, 1980), 90-94; Joseph Campbell, Historical Atlas of World Mythology; Volume 2: The Way of the Animal Powers; Part1: Mythologies of the Primitive Hunters and Gatherers (New York, 1988), 58-80; The Power of Myth, 79-81.

(21) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 194-226; Campbell, The Power of Myth, 81-85.

(22) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 225.

(23) Campbell, The Power of Myths, 124-25.

(24) Burkert, Homo Necans, 94-5.

(25) Homer, The Iliad 21:470.

(26) Burkert, Greek Religion, 149-152.

(27) Burkert, Homo Necans, 78-82.

(28) Eliade, Patterns of Comparative Religion, 331-343.

(29) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 138-40; Patterns in

Comparative Religion, 256-261.

(30) Hosea 4:11-19; Ezekiel 8:2-18; 2Kings 23:4-7.

(31) Eliade, Myths, Dreams and mysteries 161-171; Patterns in Comparative Religion, 242-253.

(32) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 162-65.

(33) Ibid., 168-171.

(34) Ibid., 188-89.

(35) Genesis 3:16-19.

(36) Anat-Baal Texts 49:11:5; quoted in E.O. James, The Ancient Gods (London, 1960), 88.

(37) Inanna's Journey to Hell' in Poems of Heaven and Hell from Ancient Mesopotamia (trans. And ed. N.K. Sandars, London, 1971), 165.

(38) Ibid., 163.

(39) Campbell, The Power of Myth, 107-11.

(40) Ezekiel 8:14; Jeremiah 32:29, 44:15; Isaiah 17:10.

(41) Burkert, Structure and History, 109-110.

(42) Burkert, Structure and History, 123-28; Homo Necans, 255-279; Greek Religion, 159-161.

(43) Eliade, Myths, Dreams and mysteries, 227-8; Patterns in Comparative Religion, 331.

(44) Karl Jaspers, The Origin and Goal of History (trans. Michael Bullock, London, 1953), 47.

(45) Gwendolyn Leick, Mesopotamia, The Invention of The City (London, 2001), 268.

(46) Genesis 4:17.

(47) Genesis 4:21-22.

(48) Genesis 11:9.

(49) Leick, Mesopotamia, 22-23.

(50) In other epics, Atrahasis is called Ziusudra and utnapishtim ('he who found life').

(51) Thokhild Jacobsen, 'The Cosmos as State' in H. and H.A. Frankfort (eds), The Intellectual Adventure of Ancient Man, An Essay on Speculative Thought in the Ancient Near East (Chicago, 1946), 186-197.

(52) Ibid., 169.

(53) Enuma Elish, 1:8-11, in Sandars, Poems of Heaven and Hell, 73.

(54) Enuma Elish, VI;19, in Sanders, Poems of Heaven and Hell, 99.

(55) Isaiah 27:1; Job 3:12, 26:13; Psalms 74:14.

(56) Eliade, Myths, Dreams and Mysteries, 80-81; The Myth of the Eternal Return, 17.

(57) The Epic of Gilgamesh, I;iv:6, 13, 19, Myths from Mesopotamia, Creation, the Flood, Gilgamesh, and Others (trans. Stephanie Dalley, Oxford, 1989), 55.

(58) Ibid., I:iv;30-36, [.56.

(59) Ibid., VI:ii:i-6, p.78.

(60) Ibid., VI:ii:11-12, p.78-9.

(61) Ibid., XI:vi:4, p.118.

(62) David Damrosch, The Narrative Covenant. Transformations of Genre in the Growth of Biblical Literature (San Francisco, 1987), 88-118.

(63) Epic of Gilgamesh, XI:ii:6-7 in Dalley, 113.

(64) Ibid., I:9-12, 25-29, p.50.

(65) Ibid., I:4-7, p.50.

(66) Robert A. Segal, 'Adonis: A Greek Eternal Child' in Dora C. Pozzi and John M. Wickersham (eds), Myth and the polis (Ithaca, New York and London, 1991), 64-86.

(67) Karl Jaspers, The Origin and Goal of History (trans. Michael Bullock, London 1953), 1-87.

(68) The author of the Dao De Jing, which did not become known until the mid-third century, was using the name of the fictitious sage Laozi, who was often thought to have lived in the late seventh or sixth century, as a pseudonym.

(69) Genesis 18.

(70) Isaiah 6:5; Jeremiah I:6_10, Ezekiel 2:15.

(71) Confucius, Analects 5:6; 16:2.

(72) Sadly, inclusive Language is not appropriate here. Like most of the Axial sages, Confucius had, little time for women.

(73) Confucius, Analects 12:22; 17:6.

(74) Ibid., 12:2.

(75) Ibid., 4:15.

(76) Ibid., 8:8.

(77) Ibid., 3:26; 17:12.

(78) Anguttara Nikaya 6:63.

(79) Dao De Jing, 80.

(80) Ibid., 25.

(81) Ibid., b, 16, 40, 67.

(82) Jataka 1:54-63; Vinaya: Mahavagga 1:4.

(83) Psalm 82.

(84) Chronicles 34:5-7.

(85) Hosea 13:2, Jeremiah I0; Psalms 31:6; 115:4-8; 135:15.

(86) Exodus 14.

(87) Isaiah 43:11-12.

(88) Plato, The Republic, 10:603D-607A.

(89) Ibid., 522a8; Plato, Timaeus 26E5.

(90) Metaphysics III, I000aII-20.

(91) Plato, The Republic, 509F.

(92) Plato, Timaeus 29B and C.

(93) Aristotle, Metaphysics, 1074 Bf.

(94) Corinthians 5:16.

(95) Philippians 2:9.

(96) Philippians 2:9-11.

(97) Philippians 2:7-9.

(98) Luke 24:13-22.

(99) Kabbalists stressed that En Sof was neither male nor female. It was an 'it' that became a 'thou' to the mystic at

the end of process of emanation.

(100) Gregory of Nyssa, 'Not Three Gods'.

(101) Richard S. Westfall, 'The Rise of Science and the Decline of Orthodox Christianity: A Study of Kepler, Descartes and Newton' in David C. Lindberg and Roland L. Numbers (eds), God and Nature: Historical Essays on the Encounter Between Christianity and Science (Berkeley, Los Angeles and London, 1986), 231.

(102) Gregory of Nazianzos, Oration, 29:6-10.

(103) Blaise pascal, Pensees (trans. A. J. Krasilsheimer, London, 1966), 209.

(104) R.C. Lovelace, 'Puritan Spirituality: The Search for a Rightly Reformed Church' in Louis Dupre and Don E. (eds), Christian Spirituality: Post Reformation and Modern (London and New York, 1989), 313-15.

(105) T.H. Huxley, Science and Christian Tradition (New York, 1896), 125.

(106) Friedrich Nietzsche, The Gay Science (New York, 1974), 181.

(107) Thomas Mann, 'The Making of The Magic Mountain', in The Magic Mountain. (trans H.I. Lowe Porter, London, 1999), 719-92.

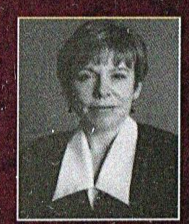
(108) George Steiner, Real Presence: Is there anything in what we say? (London, 1989), 142-143.

صُمِّمت الأسطورة لمساعدتنا على التعامل مع المآزق البشرية المستعصية، وإعانة الناس على تحديد موقعهم في العالم وتحديد وُجهتهم فيه. كلنا يريد أن يعرف من أين أتينا؟ ومع فقدان بداياتنا الأولى في ضباب ما قبل التاريخ، ابتكرنا لأنفسنا أساطير عن آبائنا الأولين، تساعدنا، على الرغم من لا تاريخيتها، على تفسير موقفنا تجاه بيئتنا وجيراننا وعاداتنا.

KAREN ARMSTRONG

A SHORT HISTORY OF MYTH

كانت الأسطورة تعبيراً عن حسِّنا الفطري بأن في العالم المادي حقائق ووقائع، أكثر بكثير مما يظهر للعين. فالأسطورة، بمعنى ما، تروي قصة حدث حصل في زمان ما، وتجعله ممكن الحصول في كل الأزمنة. لذلك، وبسبب صرامة رؤيتنا التعاقبية لأحداث التاريخ، فإننا لا نملك كلمات نعبر بها عن أنماط الحدوث الدائم، في حين أن الميثولوجيا، بصفتها صياغة فنية، قادرة على الإشارة إلى ما وراء التاريخ وإلى ما هو غير زمني في الوجود البشري، وتساعدنا في التعرُّف على ما وراء التدافع الفوضوي للأحداث العشوائية، وفي تبصُّر جوهر الحقيقة.



كارين أرمسترونغ واحدة من أهم الباحثين في الأديان وأنظمة الاعتقاد في العالم. وقد أثبتت ذلك عبر عملها الفذّ هذا، الموجز والواضح والآخّاذ، حول تاريخ وظاهرة الأسطورة، والذي يصحّ اعتباره من أهم المراجع حول هذا الموضوع.



ISBN 978-9953-87-389-3





